الحقبة الأرمنية في تاريخ الدولة العبيدية

د. حمود بن محمد النجيدي
قسم التاريخ والحضارة - كلية العلوم الاجتماعية - جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

عمرت الدولة العبيدية(١) حوالي مائتين وسبعين سنة (٢٩٧-٥٦٧هـ/ ٩٠٩-١١٧١م)، ومن وجهة نظر الدارسين فإن تاريخ هذه الدولة يمكن أن يقسم باعتبارات عدة، فإذا نظر الباحث إلى مركز الدولة فإن تاريخ العبيديين حينئذ يقسم إلى فترتين:

---

(١) لقد اختلف كثير من المؤرخين والباحثين في نسب مؤسس هذه الدولة، وكانت تسميتها بالعبيدية أحد مظاهر هذا الاختلاف الذي استمر حتى وقتنا الحاضر، والمنكرون للنسب الفاطمي استخدموا هذه التسمية تعبيرًا عن هذا الإنكار، وهو النسبة إلى عبيد الله المهدي مؤسس الدولة الذي ينسبونه إلى سلالة عبدالله بن ميمون بن ديصان القداح الثنوي المذهب الذي ينتسب إليه الثنوية القائلون بوجود إلهين (إله النور وإله الظلمة)، والذي تحول إلى التشيع، وأصبح أحد دعاة الإسماعيلية في مدينة سلَمية (من أعمال حماه في بلاد الشام)، والمتوفى بين سنتي (٢٧٠-٢٧٤هـ). أما القائلون بصحة النسب الفاطمي فعبيد الله المهدي عندهم هو سعيد بن محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه. لمزيد من التفصيل حول هذا الموضوع فضلاً انظر: ابن حماد: محمد بن علي (ت ٦٢٨هـ/١٢٣٠م): أخبار ملوك بني عبيد وسيرتهم، نشر فاندر هايدن، مطبعة جول كربونل، الجزائر، ١٩٢٧م. ابن الأثير: علي بن أحمد بن عبدالكريم (ت ٦٣٠هـ/١٢٣٨م): الكامل في التاريخ، دار الفكر، بيروت، ١٣٩٨هـ، ج٨. ابن كثير: عماد الدين إسماعيل بن عمر (ت٧٧٤هـ/١٣٧٣م): البداية والنهاية، تحقيق عبدالله بن عبدالمحسن التركي، دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ١٤١٩هـ، ج١٥، ص٨٣-٨٥. حسن إبراهيم حسن: تاريخ الدولة الفاطمية، ط الرابعة، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٨١م، ص٥٧-٧٩. عبدالحليم عويس: قضية نسب الفاطميين أمام منهج النقد التاريخي، دار الصحوة، القاهرة، ١٤٠٦هـ. محمد السعيد جمال الدين: دولة الإسماعيلية في إيران، مطابع محيي الدين، القاهرة، ١٩٧٥م.

الأولى هي الفترة الإفريقية، وقد عمرت هذه الفترة حوالي خمسة وستين عامًا(٢)، والثانية هي الفترة المصرية، وقد استمرت هذه الفترة دون انقطاع حوالي مائتين وخمسة أعوام(٣)، في الفترة الأولى كانت مدينة المهدية(٤) في إفريقية هي مركز الدولة، وفي

---

(٢) بدأت من رجب سنة ٢٩٦هـ/أبريل ٩٠٨م عندما دخل الداعي أبو عبيد الله الشيعي رقادة عاصمة الأغالبة، وأزال إمارتهم، وأبطل الخطبة للخليفة العباسي، وانتهت بخروج المعز من المنصورية - عاصمة العبيديين وقتها - يوم الاثنين ٢١ شوال سنة ٣٦١هـ/١ أغسطس ٩٧٢م. لمزيد من التفصيل عن هذه الفترة الإفريقية فضلاً انظر: ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج٧، ج٨. المقريزي: تقي الدين أحمد بن علي (ت ٨٤٥هـ/١٤٤١م): اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا، ج١، تحقيق جمال الدين الشيال، لجنة إحياء التراث الإسلامي، ١٣٨٧هـ، ج٢، ج٣، تحقيق محمد حلمي محمد أحمد، ١٣٩٠هـ - ١٣٩٣هـ. حسن إبراهيم حسن، طه أحمد شرف: عبيد الله المهدي مؤسس الدولة الفاطمية في المغرب، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٤٨م. عادلة علي الحمد، قيام الدولة الفاطمية في بلاد إفريقية والمغرب، دار ومطابع المستقبل، القاهرة، ١٩٨٠م.

O' Leary, De Lacy: A Short History of the Fatimid Khalifate, London, 1923.

(٣) بدأت الفترة باستيلاء القائد جوهر الصقلي على الفسطاط في السادس عشر من شعبان سنة ٣٥٨هـ/الأول من يوليو سنة ٩٦٩م، وانتهت في المحرم من سنة ٥٦٧هـ/ سبتمبر ١١٧١م. ولمزيد من التفصيلات عن ذلك فضلاً انظر: عمارة اليمني: أبو الحسن نجم الدين (ت ٥٦٩هـ/١١٧٤م): النكت العصرية في أخبار الوزارة المصرية، نشر ديرنبورج، باريس ١٨٩٧م. ابن المأمون، أبو علي جمال الدين موسى بن المأمون البطائحي (ت ٥٨٨هـ/١١٩٢م): أخبار مصر، تحقيق أيمن فؤاد سيد، المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية، القاهرة، ١٩٨٣م. عبدالمنعم ماجد: ظهور الخلافة الفاطمية وسقوطها في مصر، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٧م. إبراهيم رزق الله أيوب، التاريخ الفاطمي السياسي، الشركة العالمية للكتاب، بيروت، ١٩٩٦م.

(٤) إحدى مدن ولاية إفريقية (تونس الحالية) بناها عبيد الله المهدي في ذي القعدة سنة ٣٠٣هـ في منطقة حصينة يقال لها جَمّة على شاطئ البحر الذي يحيط بها من ثلاث جهات، أصبحت عاصمة للخلافة العبيدية حتى سنة ٣٤٤هـ، عندما استبدلها إسماعيل بن معد بمدينة صبرة، بينها وبين القيروان ستون ميلاً. الحموي، ياقوت بن عبدالله (ت ٦٢٦هـ/١٢٢٨م): معجم البلدان، دار صادر، بيروت، ١٣٧٦هـ، ج٥، ص٢٢٩؛ الحميري أبو عبدالله محمد بن عبدالمنعم (ت ٧٢٨هـ/ ١٣٢٨م): الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق إحسان عباس، ط الثانية، مكتبة لبنان، بيروت، ١٩٨٤م، ص٥٦١.

الفترة الثانية كانت عاصمة العبيديين مدينة القاهرة(٥).

وإذا نظر الباحث إلى هذه الدولة من زاوية القوة والضعف فإنها تتوزع بصفة عامة على مرحلتين: مرحلة القوة، وهي المرحلة الأولى من تاريخها، وتشمل الفترة الإفريقية وجزءًا من الفترة المصرية يصل حتى نهاية عهد الحاكم بأمر الله(٦) سنة إحدى عشرة وأربعمائة للهجرة (١٠٢٠م)، وقد تمثلت قوة الدولة إبان هذه المرحلة في توسعها الذي تم على حساب العديد من القوى السياسية التي كانت قائمة في الشمال الإفريقي(٧)، أما ذروة قوة الدولة في هذه المرحلة فقد برزت في عهد

---

(٥) القاهرة: بدأ بناؤها في الثامن عشر من شعبان ٣٥٨هـ/السادس من يوليو ٩٦٩م، بأمر من الخليفة العبيدي المعز لدين الله لقائده جوهر الصقلي بعد استيلائه على مصر، في موقع شمالي العسكر والقطائع يقال له (المناخ)، وبعد ثلاث سنوات اكتمل بناؤها. وفي العام الرابع دخلها المعز في رمضان سنة ٣٦١هـ/يونيو ٩٧٣م، وفي سبب تسميتها بالقاهرة ثلاث روايات، كانت مساحتها عند بنائها لا تتعدى ٤٠٠ فدان، وقد تم تخطيطها لتكون مسكنًا للخليفة وحاشيته وعسكره فقط دون اختلاطهم بسكان مصر أو بمن قدم إلى مصر من القبائل المغربية التي كانت جزءًا من جيش القائد جوهر عند استيلائه على مصر. لمزيد من المعلومات عن القاهرة وتاريخها فضلاً انظر: المقريزي: المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار (الخطط المقريزية)، ج١، ج٢، دار صادر عن طبعة بولاق، القاهرة، ١٢٧٠هـ/١٨٥٣م. أحمد فكري: مساجد القاهرة ومدارسها، دار المعارف، الإسكندرية، ١٩٦٢.
Dachraoui, F: Le Califat Fatimide au Maghreb, 296-362 /909-973. Tunis, 1981.

(٦) الحاكم بأمر الله أبو علي منصور بن العزيز نزار بن المعز معد بن المنصور إسماعيل بن القائم محمد بن المهدي، ولد سنة خمس وسبعين وثلاثمائة للهجرة، تولى الخلافة وله إحدى عشرة سنة، اشتهر بغرابة تصرفاته وأحكامه، كانت له شخصية قوية، وكان كريمًا محبًا لسفك الدماء، تسببت أخته ست الملك بقتله في شوال سنة ٤١١هـ/١٠٢١م بمساعدة الأمير ابن دواس بعد أن اتهمها بالزنا، وأشاع عنها ذلك. ابن خلكان شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر (ت ٦٨١هـ/١٢٨٢م)، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٣٩٧هـ، ج٥، ص٢٩٤؛ الذهبي شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان (٧٤٨هـ/١٣٧٤م): تهذيب سير أعلام النبلاء، ط الأولى، نشر مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤٢١هـ، ج٢، ص٧٤.

(٧) قامت الدولة العبيدية وتوسعت على أنقاض عدة قوى سيطرت على الشمال الإفريقي كان أهمها دولة الأغالبة (١٨٤-٢٩٦هـ) التي قامت في المغرب الأدنى أو ولاية أفريقية (تونس)، وكانت عاصمتها مدينة القيروان، والدولة الرستميَّة (١٤٤-٢٩٦هـ) التي قامت في المغرب الأوسط (الجزائر)، وكانت عاصمتها مدينة تاهرت، والدولة المدرارية أو دولة بني واسول (١٤٠-٣٤٩هـ) في المغرب الأقصى =

المعز لدين الله(٨) وابنه العزيز(٩)، وتمثلت في توسع النفوذ العبيدي بالإضافة إلى مصر ليشمل معظم بلاد الشام(١٠) وبلاد الحرمين

= (المغرب)، وعاصمتها مدينة سجلماسة، ودولة الأدارسة (١٧٢-٣٦٣هـ) في المغرب الأقصى كذلك، وعاصمتها مدينة فاس. لمزيد من التفصيلات عن هذه الدول (نشأتها وتاريخها) فضلاً انظر: ابن عذاري، أبو العباس أحمد بن محمد المراكشي (كان موجودًا سنة ٧١٢هـ/١٣١٢م): البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، ج١، ج٢، تحقيق ج، س، كولان، أ. ليفي بروفنسال، دار الثقافة، بيروت، ١٩٨٠م. ابن القطان، أبو الحسن علي الكتامي (ت ٦٢٨هـ/١٢٣٠م): نظم الجمان في أخبار الزمان، تحقيق محمود مكي، الرباط، ١٩٦٤م. المراكشي، عبدالواحد (ت ٦٦٩هـ/ ١٢٧١م): المعجب في تلخيص أخبار المغرب، تحقيق سعيد العريان، ومحمد العربي، القاهرة، ١٩٤٩م. الداعي عماد الدين إدريس (ت ٨٧٢هـ/١٤٨٨م): تاريخ الخلفاء الفاطميين بالمغرب (القسم الخاص من كتاب عيون الأخبار)، تحقيق محمد العلاوي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٨٥م. أحمد مختار العبادي: في التاريخ العباسي والفاطمي، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، ١٩٨٢، ص٢٢٦-٢٣٥.

(٨) المعز لدين الله أبو تميم معد بن المنصور إسماعيل بن القائم محمد بن المهدي عبيد الله، ولد في المهدية يوم الاثنين حادي عشر رمضان سنة ٣١٩هـ، وولي الخلافة يوم الأحد سابع ذي الحجة سنة ٣٤١هـ، وكانت وفاته يوم الجمعة الحادي عشر من ربيع الآخر سنة ٣٦٥هـ، كان عاقلاً حازمًا كريمًا، ذا علم وأدب، وفيه عدل وإنصاف. ابن خلكان، وفيات، ج٥، ص٢٢٤؛ الذهبي، التهذيب، ج٢، ص٧٣.

(٩) أبو منصور نزار بن المعز بن المنصور بن القائم بن المهدي، ولد في المهدية يوم الخميس رابع عشر المحرم سنة ٣٤٤هـ، ولي الخلافة يوم الجمعة حادي عشر ربيع الآخر سنة ٣٦٥هـ، وكانت وفاته مريضًا يوم الثلاثاء الثامن والعشرين رمضان سنة ٣٦٨هـ، كان كريمًا شجاعًا رحيمًا أديبًا حسن الخلق لا يحب سفك الدماء. ابن خلكان، وفيات، ج٥، ص٣٧١؛ الذهبي، التهذيب، ج٢، ص٧٤.

(١٠) في أواخر سنة ٣٥٩هـ/٩٧٠م وبعد أن انتشر النفوذ العبيدي في مصر أرسل القائد جوهر الصقلي جيشًا بقيادة جعفر بن فلاح الكتامي لبسط النفوذ العبيدي على بلاد الشام تقويضًا للنفوذ العباسي فيها واستغلالاً لتطورات الصراع الدائر هناك بين الأخشيديين وابن رائق الخزري المدعوم من الخلافة العباسية، ثم بين الأخشيديين والحمدانيين، ثم دخول قرامطة البحرين في النزاع الدائر بين القوتين. لمزيد من المعلومات عن تطورات الأحداث في بلاد الشام والنفوذ العبيدي فيها فضلاً انظر: ابن القلانسي، أبو يعلى حمزة بن أسد (ت ٥٥٥هـ/١١٦٠م): ذيل تاريخ دمشق، تحقيق آمدروز، مطبعة الآباء اليسوعيين، بيروت، ١٩٠٨م. ابن ظافر الأزدي جمال الدين علي بن منصور (ت ٦١٣هـ/١٢١٦م): أخبار الدول المنقطعة، تحقيق عصام هزايمه وآخرون، دار الكندي للنشر والتوزيع، عمان، ١٩٩٩م، ج١. محمد جمال الدين سرور: النفوذ الفاطمي في بلاد الشام والعراق، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٥٧م. خاشع المعاضيدي: الحياة السياسية في بلاد الشام خلال العصر الفاطمي، ط الأولى، دار الحرية للطباعة، بغداد، ١٩٧٥م.

الشريفين(١١)، أما مرحلة الضعف فإنها تمتد من عهد الظاهر لإعزاز دين الله(١٢) وحتى نهاية الدولة سنة سبع وستين وخمسمائة للهجرة (١١٧١م).

وإذا نظر الباحث إلى الدولة العبيدية من خلال مدى سيطرة الخليفة على مقاليد الأمور فيها فإنها تقسم إلى ثلاث مراحل: في المرحلة الأولى التي انتهت مع نهاية عهد العزيز، كان الخليفة هو صاحب الكلمة العليا في رسم سياساتها وتنفيذ مخططاتها، وفي المرحلة الثانية التي تشمل عهدي الحاكم والظاهر وحوالي ثلثي عهد المستنصر(١٣)، تضاءل نفوذ الخليفة وضعف في فترات، وبرزت سلطته وقوته في

---

(١١) قامت في مكة والمدينة إمارة محلية سنة ٣٣٨هـ تولاها جماعة من بني الحسن بن علي بن أبي طالب، ومن بني جعفر الطيار بن أبي طالب، وكثيرًا ما حدث تنازع بين الجماعتين حول شؤون الإمارة والإشراف على الحرمين، وقد استغل المعز العبيدي هذا النزاع للتدخل في شؤون الحجاز (مكة والمدينة)، فأخذ يتقرب إليهم، ويتوسط للصلح بينهم، ويرسل إليهم الأموال والهدايا، وبعد أن انتقل المعز إلى مصر سنة ٣٦٢هـ اعترف به أمراء الحجاز إمامًا وخطبوا له على المنابر، ثم أصبح هذا الاعتراف مذبذبًا بين العبيديين والعباسيين، إذ سار أمراء مكة من بني الحسن وبني جعفر ثم بني هاشم بعدهم على سياسة نفعية، وصاروا يخطبون لمن يدفع لهم أكثر، الأمر الذي أحدث اضطرابًا في أحوال الحجاز السياسية والاقتصادية والاجتماعية، وعدم استقرار الأوضاع فيها حتى نهاية العصر العبيدي. لمزيد من التفصيل عن ذلك فضلاً انظر: ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج٧، ج٨. ابن خلدون، أبو زيد عبدالرحمن بن محمد (ت ٨٠٨هـ/١٤٠٥م): العبر وديوان المبتدأ والخبر (تاريخ ابن خلدون) منشورات الأعظمي، بيروت، ١٩٧٩م، ج٤. محمد جمال الدين سرور: النفوذ الفاطمي في جزيرة العرب، ط الأولى، دار الفكر العربي، ١٣٦٩هـ.

(١٢) الظاهر لإعزاز دين الله: أبو الحسن علي بن الحاكم منصور بن العزيز نزار، ولد يوم الأربعاء العاشر من رمضان سنة ٣٩٥هـ، وبويع له بالخلافة يوم عيد الأضحى سنة ٤١١هـ، وتوفي ليلة الأحد النصف من شعبان سنة ٤٢٧هـ، كان حسن السيرة عادلاً، أهمل أمر دولته بملذاته وحبه للراحة والدعة. ابن ظافر، أخبار الدول المنقطعة، ج١، ص٢١٤؛ ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص١٠-١١.

(١٣) المستنصر بالله أبو تميم معد بن الظاهر لإعزاز دين الله علي بن الحاكم بأمر الله منصور، ولد في القاهرة في الثلاثاء الرابع عشر من جمادى الآخرة سنة ٤٢٠هـ، وولي الخلافة يوم الأحد منتصف شعبان سنة ٤٢٧هـ، وكانت وفاته ليلة الخميس الثامن عشر من ذي الحجة سنة ٤٨٧هـ، كان سيئ التدبير، مفرطًا في الفسق والمجون، جرى منه كثير من المظالم والشرور. ابن ظافر، أخبار الدول المنقطعة، ج١، ص٢١٦؛ ابن خلكان، وفيات، ج٥، ص٢٢٩.

فترات أخرى، أما في المرحلة الثالثة والأخيرة التي بدأت من سنة ست وستين وأربعمائة للهجرة (١٠٧٣-١٠٧٤م)، وانتهت بسقوط الدولة، فإن نفوذ الخليفة قد تقلص بشكل كبير، بل إنه في بعض السنوات لم يكن له ولو قدر ضئيل من النفوذ على الإطلاق.

وأيضًا يمكن للباحث أن ينظر إلى الدولة العبيدية من زاوية سيطرة مراكز القوى فيها، بمعنى سيطرة طائفة معينة على الكثير من المواقع المؤثرة في الدولة، وبالتالي التغلغل بنفوذها إلى ما هو أبعد في حياة الدولة السياسية والاقتصادية.

ومن هذه الزاوية يوجد في تاريخ الدولة العبيدية فترات عدة، منها فترة الصقالبة، وفترة الكتاميين، وفترة السودان، وفترة الأتراك، وغير ذلك من الفترات التي برزت فيها طائفة من دون طائفة أخرى(١٤).

---

(١٤) لتكسب التنافس في خدمتها اعتمدت الخلافة العبيدية على عدة عناصر من أجناس مختلفة، واستمر الاعتماد والتعدد حتى سقوط الدولة العبيدية. فمنذ ظهورها في المغرب اعتمدت على العنصر البربري (المغاربة)، وعرف منهم طوائف عدة، أشهرها كتامة وزويلة والمصامدة والباطليين والبرقية، وبعد استقرارهم في مصر اعتمد المعز العبيدي على من عرفوا بـ (أولاد الناس)، وهم من المماليك الذين يؤتى بهم صغارًا ويتربون وينشأون في خدمة الدولة، ثم ظهر ميل العبيديين إلى استخدام عناصر مشرقية من الديلم والأتراك الذين عرفوا بالمشارقة، واستخدم العبيديون إلى جانب هؤلاء السودان الذين كثرت أعدادهم في مصر منذ العهد الطولوني، وأخذوا في الزيادة في العصر العبيدي حتى بلغت أعدادهم خمسين أو ستين ألفًا في عهد الحاكم، كذلك استخدم العبيديون عناصر من المرتزقة الروم والأرمن، وأيضًا استخدموا الكرد كما استخدموا القبائل العربية التي استوطنت مصر وخصوصًا قبائل قيس وهلال وطيئ وكلب.

وطبيعي أن يحدث بين هذه العناصر الكثير من التنافس والنزاعات بل والحروب الدامية بحثًا عن مصالحهم وحفاظًا على نفوذهم وسيطرتهم على مراكز القرار في الدولة. لمزيد من التفصيل عن هذه العناصر وأوضاعها ونزاعاتها في العصر العبيدي فضلاً انظر: المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج٢، ج٣. ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص١١٥، ١١٨. موسى لقبال، دور كتامة في تاريخ الخلافة الفاطمية منذ تأسيسها إلى منتصف القرن الخامس الهجري، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ١٩٧٩م. عبدالمنعم ماجد: الإمام المستنصر بالله الفاطمي، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٦١م، ص١٦٠، ١٦٩. إبراهيم أيوب: التاريخ الفاطمي الاجتماعي، الشركة العالمية للكتاب، بيروت ١٩٩٧م، ص١٥، ٦٣.

ومن أهم الفترات التي انعكست تأثيراتها بشدة على الدولة العبيدية، حقبة نفوذ العناصر الأرمنية(١٥)، وتبدأ هذه الفترة من منتصف سنة ست وستين وأربعمائة للهجرة (١٠٧٤م)، وهو التاريخ الذي أسندت فيه الوزارة العبيدية إلى بدر الجمالي الأرمني الأصل(١٦)، وتنتهي هذه الفترة في الأسبوع الثاني من جمادى الأولى سنة إحدى وثلاثين وخمسمائة للهجرة (١١٣٧م)، وهو التاريخ الذي أُرغم فيه

---

(١٥) ترجع أصول الأرمن إلى القبائل الآرية المعروفة بـ(الهندوأوربية)، قدموا من أواسط آسيا، واستوطنوا المنطقة التي عرفت بأرمينية في (آسيا الصغرى)، وبهذا اتصلوا ببلاد الشام، وارتبطوا معها سياسيًا ودينيًا واجتماعيًا في فترات عدة، وزاد اتصالهم بها بعد اعتناقهم النصرانية أواخر القرن الثاني الميلادي على يد القديس جريجوريوس المنير الملقب برسول أرمينية. أصبحت أرمينية جزءًا من الدولة الإسلامية منذ الفتوح الإسلامية الأولى، وشهد القرن الخامس الهجري /الحادي عشر الميلادي تطورات سياسية صاحبت توسع الأتراك السلاجقة في آسيا الصغرى ومن ضمنها منطقة أرمينية، وقد أدت تلك التطورات إلى هجرات بشرية نحو بلاد الشام، كان أهمها هجرة الأرمن إلى الأجزاء الشمالية من بلاد الشام نحو قليقية والرهاوتل باشر وأنطاكية وأرتاح وكفردبين، ثم في تاريخ لاحق انتشروا في المناطق الجنوبية من بلاد الشام في بيت المقدس والكرك والشوبك وعمان، ومنها بدأ تسربهم إلى مصر حتى كانت هجرتهم الكثيفة إليها مع الوزير بدر والسنوات التالية في ظل بروز نفوذ العناصر الأرمنية في الديار المصرية. لمزيد من التفصيل عن الأرمن وتاريخهم فضلاً انظر: مروان المدور: الأرمن عبر التاريخ، دار مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٨٢م. عبدالرحمن محمد العبدالغني: أرمينية وعلاقاتها السياسية بكل من البيزنطيين والمسلمين، مؤسسة الكويت للتقدم العلمي، الكويت، ١٩٨٩م. فايز نجيب إسكندر: أرمينية بين البيزنطيين والأتراك السلاجقة، في مصنف أريستاكيس اللستيغرتي، المطبعة العصرية، الإسكندرية، ١٩٨٣م.

Hintlian, K: History of the Armenians in the Holy Land, London, 1976.

(١٦) سيف الإسلام أبو النجم المستنصري بدر بن عبدالله الجمالي، نسبة إلى جمال الدولة أبي الحسن علي بن عمار صاحب طرابلس الشام الذي اشتراه غلامًا، فتربى عنده، وتقدم في الخدمة حتى ولي دمشق للخليفة المستنصر سنة ٤٥٥هـ، كان ذا سطوة وبطش وهمة وهيبة، مات في سنة ٤٨٨هـ بعد مرض طال به. ابن الصيرفي أمين الدين علي بن منجب بن سليمان (ت ٥٤٢هـ/١١٤٧م): الإشارة إلى من نال الوزارة، تحقيق أيمن فؤاد سيد، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، ١٤١٠هـ، ص٩٤؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج٢، ص٤٤٨، ٤٥٠؛ الذهبي، التهذيب، ج٢، ص٤٤٦.

الوزير بهرام الأرمني(١٧) على الخروج من القاهرة تحت ضغط القوات المعادية والمناوئة لتغلغل النفوذ الأرمني في الدولة العبيدية(١٨).

ويمكن للباحث أن يسمي هذه الفترة بحقبة النفوذ الأرمني لاعتبارين محددين:

الأول يتصل بقمة السلطة في الدولة العبيدية، حيث تخلى الخلفاء العبيديون عن مركز الصدارة في الدولة لصالح قادة الأرمن ابتداءً من بدر الجمالي، وانتهاء بالوزير بهرام الأرمني.

والاعتبار الثاني يتصل بالقوة العسكرية التي يناط بها عادة تنفيذ سياسات الدولة كما ترسمها قمة السلطة. والقوة العسكرية الرئيسة في هذه الفترة كانت أيضًا بيد عناصر أرمينية الأصل، فقد أحضر بدر الجمالي معه عددًا كبيرًا منهم ولحق بهم آخرون، وبهذه القوة الأرمنية تغلب بدر على القوى المناوئة وخاصة العناصر التركية التي سيطرت على مقاليد الأمور في الدولة حتى بدا وكأنها على وشك الإطاحة بالنظام من أساسه.

بعد ذلك بقيت العناصر الأرمنية هي القوة المؤثرة على الساحة السياسية ولمدة طويلة.

---

(١٧) تاج الدولة أبو المظفر بهرام بن أسد الأرمني، أقام في الوزارة سنة واحدة وعشرة أيام، ثم استعفى ولبس الصوف وترهب، وبنى له مكانًا في قصره يتعبد فيه حتى مات في شهر ربيع الآخر سنة ٥٣٥هـ، وفي رواية أنه مات مسمومًا بعد أن قبض عليه رضوان بن ولخشي في صعيد مصر في رمضان سنة ٥٣٣هـ، وأحضره إلى القاهرة. ابن ظافر، الدول المنقطعة، ج١، ص٢٤٥-٢٤٦؛ ابن ميسر: تاج الدين محمد بن علي (ت ٦٧٧هـ/١٢٧٨م): أخبار مصر (المنتقى)، تحقيق أيمن فؤاد سيد، المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية، القاهرة، ١٩٨١م، ص١٣٢-١٣٣؛ ابن أيبك الدواداري، أبو بكر عبدالله (ت ٧٣٦هـ/١٣٣٥م): كنز الدرر وجامع الغرر، ج٦ (الدرة المضيئة في أخبار الدولة الفاطمية) تحقيق صلاح الدين المنجد، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٣٨٠هـ، ص٥٠٧، ٥١٢، ٥١٤، ٥١٨.

(١٨) ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص٢٦٢؛ ابن ظافر، الدول المنقطعة، ج١، ص٢٤٥؛ ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص٣٥٦.

حقبة نفوذ العناصر الأرمنية:

استغرقت هذه الفترة حوالي خمسة وستين عامًا مع سنوات انقطاع محدودة ومتناثرة، وفي هذه الفترة تعاقب على منصب الخلافة العبيدية أربعة خلفاء، كان أولهم المستنصر بالله، ثم من بعده ابنه أبو القاسم أحمد المستعلي بالله(١٩)، وتلاه ابنه أبو علي المنصور الآمر بأحكام الله(٢٠)، وأخيرًا الخليفة الحافظ لدين الله(٢١).

ونلتفت إلى منصب الوزارة في الفترة نفسها، فنجد أنه تعاقب عليه ستة من الوزراء، خمسة من الأرمن، أولهم بدر الجمالي الذي بدأت وزارته في جمادى الأولى سنة ست وستين وأربعمائة للهجرة (١٠٧٤م)، واستمر في منصبه حتى وفاته في ربيع الأول سنة سبع وثمانين وأربعمائة للهجرة (١٠٩٤م)، وثانيهم هو الأفضل بن بدر

---

(١٩) المستعلي بالله أحمد بن المستنصر بالله معد بن الظاهر علي بن الحاكم بن العزيز بن المعز، ولد في العشرين من المحرم سنة ٤٦٩هـ، وبويع بالخلافة في الثامن عشر من ذي الحجة سنة ٤٨٧هـ، وتوفي بمصر يوم الثلاثاء السابع عشر من صفر سنة ٤٩٥هـ، كان حسن السيرة ضعيف الشخصية. ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص١٤١؛ ابن ظافر، الدول المنقطعة، ج١، ص٢٢٩، ٢٣٤؛ ابن خلكان، وفيات، ج١، ص١٧٨، ١٨٠.

(٢٠) الآمر بأحكام الله أبو علي منصور بن المستعلي بالله أحمد، ولد يوم الثلاثاء الثالث عشر من المحرم سنة ٤٩٠هـ، وبويع له بالخلافة يوم وفاة أبيه يوم الثلاثاء السابع عشر من صفر سنة ٤٩٥هـ، ومات مقتولاً على يد جماعة من النزارية (المؤيدين لخلافة عمه نزار بدلاً من أبيه) يوم الثلاثاء ثاني ذي القعدة سنة ٥٢٤هـ، كان سيئ السيرة ظالمًا للرعية سفاكًا للدماء، مظهرًا ولعه باللهو والمجون. ابن القلانسي، الذيل، ص٢٢٨؛ ابن ظافر، الدول المنقطعة، ج١، ص٢٣٤، ٢٤٠؛ ابن خلكان، وفيات، ج٥، ص٢٩٩، ٣٠٢.

(٢١) الحافظ لدين الله أبو ميمون عبدالمجيد بن أبي القاسم محمد بن المستنصر معد بن الظاهر علي، ولد في المحرم سنة ٤٦٧هـ، أصبح وليًا للعهد يوم مقتل الآمر بأحكام الله يوم الثلاثاء الثاني من ذي القعدة سنة ٥٢٤هـ، ثم بويع له بالخلافة يوم مقتل الوزير أحمد بن الأفضل بن بدر الجمالي في النصف من المحرم سنة ٥٢٦هـ، وكانت وفاته ليلة الأحد الخامس من جمادى الآخرة سنة ٥٤٤هـ، حجر عليه في بداية عهده، ثم نازعه ولده حسن على تدبير أمور الدولة، كان حازم الرأي، جامعًا للأموال بخيلاً. ابن ظافر، الدول المنقطعة، ج١، ص٢٤٠، ٢٤٩؛ ابن خلكان، وفيات، ج٣، ص٢٣٥، ٣٣٧.

الجمالي(٢٢)، الذي عمر طويلاً في منصب الوزارة، إذ إنه استمر فيه حتى اغتياله في رمضان سنة خمس عشرة وخمسمائة للهجرة (١١٢١م)، وهو الذي عمل مع ثلاثة من الخلفاء، هم المستنصر بالله لعدة شهور، والمستعلي بالله طوال مدة خلافته، والآمر بأحكام الله حوالي عشرين سنة من مدة حكمه. وثالثهم وإن لم يكن أرمني الأصل ولكن يمكن أن يوصف بأنه أرمني بالانتماء هو المأمون البطائحي(٢٣)، الذي وزر في شوال سنة خمس عشرة وخمسمائة للهجرة (١١٢٢م)، وحتى أوائل رمضان سنة تسع عشرة وخمسمائة للهجرة (١١٢٥م)، وكان قبل وزراته أحد أعوان بدر الجمالي ومن بعده ابنه الأفضل، وممن قدموا خدمات جليلة لهذه الأسرة.

عاشت الدولة العبيدية بعد ذلك حوالي خمسة أعوام ومنصب الوزارة شاغر(٢٤)، ثم ومع بداية عهد الحافظ لدين الله، عادت القوة إلى بيت بدر الجمالي من جديد، ففي اليوم السادس عشر من ذي القعدة سنة أربع وعشرين وخمسمائة

عاشت الدولة العبيدية حوالي خمسة أعوام ومنصب الوزارة شاغر

---

(٢٢) الأفضل أبو القاسم شاهنشاه بن بدر بن عبدالله الجمالي، ولد في عكا سنة ٤٥٨هـ، وتولى الوزارة في أثناء مرض أبيه في ربيع الأول سنة ٤٨٧هـ، وقتل بمؤامرة من الخليفة الآمر بأحكام الله يوم الأحد ثاني عيد الفطر سنة ٥١٥هـ، كان حسن الاعتقاد وحسن السيرة عادلاً صائب الرأي والتدبير عالي الهمة قوي الشخصية. ابن الصيرفي، الإشارة، ص١٠٠-١٠١؛ ابن القلانسي، الذيل، ص٢٠٣-٢٠٤؛ ابن ظافر، الدول المنقطعة، ج١، ص٢٢٩، ٢٣٥.

(٢٣) أبو عبدالله محمد بن فاتك بن مختار بن حسن بن تمام المعروف بالأمير المأمون بن البطائحي (نسبة إلى البطائح موضع في العراق بين واسط والبصرة)، وعندما سلّم الخليفة أموال وأملاك ومقتنيات الوزير الأفضل بن بدر لقبه بالمأمون، ولي الوزارة بعد مقتل الأفضل بن بدر، حتى إذا ساءت سيرته وكثر ظلمه وتسلطه قبض عليه الخليفة الآمر ليلة السبت رابع رمضان سنة ٥١٩هـ، واعتقله ثلاث سنين، ثم قتله في رجب سنة ٥٢١هـ، وصلبه عدة سنين أخرى. ابن ظافر، الدول المنقطعة، ج١، ص٢٣٦؛ ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص٣١٩؛ ابن خلكان، وفيات، ج٥، ص٢٩٦.

(٢٤) ابن القلانسي، الذيل، ص٢٢٩؛ ابن ظافر، الدول المنقطعة، ج١، ص٢٤٠؛ ابن أيبك، الدرة المضيئة، ص٤٩٦، ٥٠٦.

للهجرة (١١٣٠م)، فُرض أحمد(٢٥) حفيد بدر وزيرًا، فرض على الحافظ من قبل أتباعه أو المؤيدين لفكرة استمرار النفوذ الأرمني في الدولة العبيدية، وقد حمل الوزير الجديد لقب "الأكمل"، ولم يمكث في الوزارة طويلاً، حيث قتل في منتصف المحرم من السنة التالية سنة ست وعشرين وخمسمائة للهجرة (١١٣١م)(٢٦).

بعد مقتل الأكمل أسند منصب الوزارة إلى أرمني آخر ذلك هو الأمير يانس(٢٧)، وهو من أتباع الأفضل وممن خدموه مدة طويلة، ومن خلال هذه التبعية ترقَّى حتى وصل إلى منصب متولي الباب(٢٨)، وكان حظ يانس في الوزارة قليلاً، إذ إنه لم يعمر فيها سوى تسعة أشهر وأيام، وتخلص منه الحافظ عن طريق وضع السم له في ماء الوضوء(٢٩).

---

(٢٥) أبو علي الأكمل أحمد بن الأفضل شاهنشاه بن بدر الجمالي المعروف بكتيفات، اعتقله الآمر عند مقتل أبيه الأفضل، وبعد مقتل الآمر ثاني ذي القعدة سنة ٥٢٤هـ أخرجه الجند من الاعتقال وبايعوه وزيرًا، كان ذا رأي وسياسة وتدبير، عادلاً جوادًا، قتل في النصف من المحرم سنة ٥٢٦هـ في البستان الكبير خارج القاهرة بتدبير من الخليفة الحافظ لدين الله. ابن القلانسي، الذيل، ص٢٢٩؛ ابن ظافر، الدول المنقطعة، ج١، ص٢٤٠، ٢٤٢؛ ابن خلكان، وفيات، ج٣، ص٢٣٥-٢٣٦.

(٢٦) ابن ظافر، الدول المنقطعة، ج١، ص٢٤٠، ٢٤٢؛ ابن أيبك، الدرة المضيئة، ص٥٠٦؛ المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج٣، ص١٤٦.

(٢٧) السعيد أبو الفتح يانس الحافظي الرومي، كان غلامًا للأفضل، ثم أصبح من مماليك المأمون البطائحي، وترقى في الخدمة عنده حتى ولي الوزارة بعد خروجه من الاعتقال يوم بويع الحافظ بالخلافة في المحرم من سنة ٥٢١هـ، ومات مسمومًا بتدبير من الخليفة الحافظ ثاني ذي القعدة، وقيل: في السادس والعشرين من ذي الحجة سنة ٥٢٦هـ، كان ذا هيبة بعيد الغور كثير الشر. ابن المأمون، أخبار مصر، ص٣٧؛ ابن ظافر، الدول المنقطعة، ج١، ص٢٤٥؛ ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص٣٣٥.

(٢٨) وترد في بعض المصادر بلفظ متولي حجبة الباب وحجبية الباب، والمقصود منها هو حاجب باب الوزير، إذ إنها من الوظائف التابعة له. ابن المأمون، أخبار مصر، ص٣٦، ص٥٢، ٨٨، ٨٩.

(٢٩) ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص٣٣٥؛ ابن أيبك، الدرة المضيئة، ص٥٠٧؛ المقريزي، الخطط، ج٢، ص١٧.

وعقب التخلص من يانس تولى الحافظ الأمر بنفسه، واستعان في إدارة شؤون الدولة بأحد أولاده، تبع ذلك تفجر أزمة خطيرة داخل بيت الحافظ، لم تنته إلا بعد تخلص الخليفة – وعن طريق السم – من ابنه وولي عهده الحسن(٣٠)، بعد ذلك أسند الحافظ وزارته إلى بهرام الأرمني، وذلك في جمادى الآخرة سنة تسع وعشرين وخمسمائة للهجرة (١١٣٥م)، وقد استمر هذا الأرمني النصراني في الوزارة العبيدية حتى جمادى الأولى من سنة إحدى وثلاثين وخمسمائة للهجرة (١١٣٧م)(٣١).

هؤلاء هم الرجال الستة الذين تعاقبوا على منصب الوزارة إبان حقبة نفوذ العناصر الأرمنية، ويعد الأفضل بن بدر الجمالي أهم هؤلاء على الإطلاق؛ وذلك لطول مدة توليه من ناحية، ولتأثيره الشديد على مجريات الأحداث من ناحية ثانية.

بداية النفوذ:

تعد سنة ست وستين وأربعمائة للهجرة (١٠٧٤م) سنة تحول أساسية في تاريخ الدولة العبيدية، وسنة فاصلة في مصير ومستقبل

---

(٣٠) بعد تولي الحافظ الخلافة جعل ابنه أبا تراب حيدرة وليًا للعهد، فلم يرض بذلك ولده أبو علي حسن، فجمع الأجناد وأراد القبض على أخيه الذي احتمى بأبيه، فحصرهما في القصر، وطالب والده بتسليمه، فأرضاه بتعيينه وليًا للعهد، ثم استبد بالأمر ولم يبق لأبيه غير الاسم، فحسده أخوه حيدرة الذي جمع العساكر لقتال أخيه، لكنه مني بهزيمة قتل فيها معظم المؤيدين له، وزاد هذا الانتصار من نفوذ أخيه وتسلطه في الدولة، فاعتقل والده الخليفة الحافظ في القصر ومنعه من الخروج أو التصرف بأمور الدولة، وعمل على التخلص من أمراء الدولة، فاجتمعوا وعزموا على خلع الحافظ وولده، فأقنعهم الحافظ بإمهاله بعض من الوقت للتخلص من ابنه، فراسله واحتال عليه في الحضور حتى إذا تمكن من ذلك قبض عليه واعتقله، فطالبوه بقتله وهددوه إن لم يفعل بقتل ابنه وخلعه من الخلافة، فاضطر إلى الرضوخ لمطالبهم فسّمه، وقيل: أمر بخنقه حتى مات.

لمزيد من التفصيل عن ذلك فضلاً انظر: ابن القلانسي، الذيل، ص٢٤٢. ابن ظافر، الدول المنقطعة، ج١، ص٢٤٢، ٢٤٤. المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج٣، ص١٤٦، ١٥٠.

(٣١) ابن ظافر، الدول المنقطعة، ج١، ص٢٤٤؛ ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص٣٥٦؛ ابن أيبك، الدرة المضيئة، ص٥١٤-٥١٥.

هذه الدولة بين اتجاهين: اتجاه نحو السقوط، واتجاه نحو العودة إلى القوة من جديد، ونرجع إلى الوراء قليلاً فنجد أن التاريخ قد سجل وعلى مدى أكثر من عشر سنوات وقوع العديد من مظاهر التصدع والانهيار في بنيان الدولة العبيدية، إذ إنه ابتداءً من سنة أربع وخمسين وأربعمائة للهجرة (١٠٦٢م) وقعت مصر فريسة لحرب أهلية مدمرة استغرقت أكثر من عشر سنوات، وقد ظهر في أثناء هذه الحرب وبشكل واضح انقسام خطير في القوة العسكرية التي كانت تستند إليها الدولة، فالجنود الأتراك تحت قيادة الحسن بن الحسين بن حمدان(٣٢) كانوا يشكلون القوة المناوئة لنفوذ الخليفة العبيدي المستنصر بالله، وفي مجابهة هذه القوة كان يقف مع الخليفة وأتباعه العبيد أو السودان.

وفي هذه الحرب رجحت كفة العناصر التركية، وسيطروا تحت قيادة زعيمهم ابن حمدان على قسم كبير من الأرض المصرية، وفرضوا إرادتهم على الخليفة، وطبقوا معه سياسة الاستنزاف الاقتصادي، وقد نجحوا في هذه السياسة إلى أقصى درجات النجاح(٣٣).

وقد ارتبط بهذه الحرب الأهلية وترتب عليها وقوع مصر في أزمة اقتصادية طاحنة أطلق عليها المؤرخون لعنفها وقسوتها اصطلاح

---

(٣٢) الأمير المظفر ناصر الدولة أبو محمد الحسن بن أبي عبدالله الحسين بن ناصر الدولة أبو محمد الحسن بن عبدالله بن حمدان التغلبي، قدم إلى مصر بعد انقراض دولة الحمدانيين في الموصل على يد البويهيين، وجعله المستنصر من كبار قواده، وعينه في ولاية دمشق سنة ٤٣٣هـ ثم في ولايتها للمرة الثانية سنة ٤٥٠هـ، ثم واليًا على ريف مصر (شرقه وغربه)، زاد نفوذه بعد أن أصبح قائدًا للجنود الأتراك في مصر في مواجهة السودان، وخاض ضدهم معارك طاحنة، سعى للقضاء على الخلافة العبيدية وخلع المستنصر، ودخل في صراع مع الخلافة مما كان سببًا في قتله سنة ٤٦٥هـ، في داره على النيل المعروفة بمنازل العز على يد بلدكوز التركي مقدم الأتراك الذي تتبع إخوته وأفراد أسرته في جميع أنحاء مصر فقتلوا عن آخرهم. ابن القلانسي، الذيل، ص٨٣، ٨٦؛ ابن ظافر، الدول المنقطعة، ج١، ص١٠٥؛ ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص١١٥، ١١٨.

(٣٣) ابن الصيرفي، الإشارة، ص٩٥؛ ابن القلانسي، الذيل، ص٨٤، ٩٣؛ ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص١١٥، ١١٨؛ المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج٢، ص٢٣٣، ٢٧٨.

"سنوات الشدة"(٣٤)، ويشبهون قسوتها وعدد سنواتها بالسنوات الصعبة التي واجهتها مصر في أيام نبي الله يوسف عليه السلام، وكانت مدتها سبع سنوات بداية من سنة سبع وخمسين وأربعمائة، وانتهاءً بسنة أربع وستين وأربعمائة للهجرة (١٠٦٥م-١٠٧٢م) .

وفوق هذا وذاك فإن الحرب الأهلية والأزمة الاقتصادية كان لهما تأثيرهما العنيف على الحياة السياسية، وهو التأثير الذي برز بصورة قوية في شكل أزمة وزارية حادة بلغت ذروتها في سنة سبع وخمسين وأربعمائة للهجرة (١٠٦٥م) والسنتين التاليتين لها، ويكفي لتوضيح حجم الأزمة الوزارية الإشارة إلى أنه في ذلك العام تتابع على منصب الوزارة تسعة رجال مكث فيها بعضهم مدة يوم واحد فقط(٣٥)، وأن الخليفة المستنصر قد اضطر إزاء هذه الأزمة أن يعلق منصب الوزارة لعدة شهور(٣٦).

هذه الأزمة الحادة بأبعادها الثلاثة لم تكن داخلية خالصة، بل اشتركت في تشكيلها مؤثرات خارجية، وها هو ذا مؤرخ مصر ابن ميسر يقول عن الزعيم ابن حمدان: "وأخذ في إقامة الدعوة

---

(٣٤) عن هذه الشدة أسبابها ومظاهرها ونتائجها فضلاً انظر: المقريزي، إغاثة الأمة بكشف الغمة، القاهرة، ١٩٤٠م، ص٢١ وما بعدها. ابن تغري بردي: أبو المحاسن جمال الدين يوسف (ت ٨٧٤هـ/١٤٧٠م)، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، عن طبعة دار الكتب المصرية، القاهرة ١٣٨٣هـ، ج٥، ص١٥ وما بعدها. راشد البراوي، حالة مصر الاقتصادية في عهد الفاطميين، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٣٦٨هـ، ص٨٨، ٩٩.

(٣٥) أصاب الاضطراب والتدهور معظم مرافق الدولة وإداراتها ومن ذلك الوزارة التي أصبحت هدفًا لكل طامح ذي مصالح شخصية، وأوضح مثال على هذا هو التغيُّر السريع للوزراء، ومن ثم قِصَر مدة توليهم، فمنهم من أقام سبعة عشرة يومًا، ومنهم من أقام عشرة أيام، ومنهم من أقام أقل من ذلك، وذاك الذي أقام يومًا واحدًا هو أبو عبدالله محمد بن أبي حامد الذي كانت ألقابه أطول من مدة توليه الوزارة. ابن الصيرفي، الإشارة، ص٨٧، ٩١، ٩٢، ٩٣؛ ابن ميسر، المنتقى، ص٢٩-٣٠؛ ماجد، الإمام المستنصر، ص٢٣؛ محمد حمدي المناوي، الوزارة والوزراء في العصر الفاطمي، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٠م، ص٣٠، ٣١٣.

(٣٦) ابن الصيرفي، الإشارة، ص٩٥؛ ابن أيبك، الدرة المضيئة، ص٣٨٦.

العباسية بمصر، وإزالة خلافة الفاطميين"(٣٧)، كما يذكر عنه كل من ابن العديم والمقريزي(٣٨) أنه بعث في سنة ثنتين وستين وأربعمائة للهجرة (١٠٦٩م) رسولاً إلى ألب أرسلان(٣٩) يستدعي عساكره ليسلم إليه ديار مصر ويغير الدعوة. أما ابن الأثير فإنه يقول عن تلك التطورات: "وقطع خطبة المستنصر بالإسكندرية ودمياط، وكانا معه، وكذلك جميع الريف، وأرسل إلى الخليفة ببغداد يطلب خلعًا ليخطب له بمصر"(٤٠).

إذا نظر الباحث إلى ظروف مصر، ومدى التردي الذي وصلت إليه أوضاعها في السنوات السابقة على سنة ست وستين وأربعمائة للهجرة (١٠٧٣م)، فإنه يكاد يجزم بأن هذه الدولة قد غدت بالفعل على حافة الانهيار النهائي؛ وذلك لأنها فقدت مقومات استمرارها، الاقتصادية منها وأيضًا السياسية والعسكرية، ولم يكن للدولة العبيدية أن تبتعد عن نهايتها المحتومة إلا بما يشبه المعجزة(٤١)، وقد سجل التاريخ أن مجيء بدر الجمالي إلى مصر كان بداية لتأثيرات غيرت مجرى الأحداث في الدولة العبيدية، وجنبتها إلى حين خطر الانهيار النهائي.

---

(٣٧) المنتقى، ص٣٨.

(٣٨) ابن العديم: كمال الدين عمر بن أحمد بن هبة الله (ت ٦٦٠هـ/١٢٦٢م): زبدة الحلب من تاريخ حلب، تحقيق سامي الدهان، المعهد الفرنسي للدراسات العربية، دمشق، ١٣٧٣هـ، ج٢، ص١٩؛ المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج٢، ص٣٠٢.

(٣٩) عضد الدولة أبو شجاع محمد ألب أرسلان بن جغري بك داود بن ميكائيل بن سلجوق، ولد سنة ٤٢٤هـ في خراسان، وتولى السلطنة عقب وفاة عمه طغرل بك في ذي الحجة سنة ٤٥٥هـ بعد نزاع مع أخيه سليمان، كان حسن السيرة دينًا عادلاً حازمًا كثير الغزو والجهاد، توفي يوم السبت آخر ربيع الأول سنة ٤٦٥هـ. ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص١١٢؛ ابن خلكان، وفيات، ج٥، ص٦٩.

(٤٠) الكامل، ج٨، ص١١٧.

(٤١) يقول ابن الصيرفي (الإشارة ص٩٥) عن هذه الأوضاع: "وكانت الأحوال يومئذ بالحضرة قد فسدت، والأمور قد تغيرت، وطوائف العساكر قد تبعثرت وتحزبت، والفتن بينهم قد اتصلت وتأكدت، والوزراء يقنعون بالاسم دون الأمر والنهي، والرخاء قد أيس منه، والصلاح لا يطمع فيه، ولواته قد ملكت الريف، والصعيد بأيدي العبيد، والطرقات قد انقطعت برًا وبحرًا إلا بالخفارة الثقيلة والكلفة الكبيرة مع ركوب الغرر وشدة الخطر، والمارقون ينوي بعضهم لبعض الاحتيال والغدر، ويضمر كل منهم لصاحبه الاغتيال والبغي".

في شهر جمادى الأولى من ذلك العام وصل بدر الجمالي إلى مصر قادمًا من بلاد الشام، وقد ارتبط بمجيئه تغيُّر الصورة القاتمة التي كانت تعيشها مصر، ويبدو أن هذا الرجل الأرمني قد وجد في استدعاء المستنصر إياه لنجدته وإعانته فرصة لا تعوض يستطيع من خلالها أن يغير صورته السيئة التي ارتبطت بفشله أكثر من مرة في بلاد الشام، خاصة وأنه قد تقدم به العمر، ولم يعد هناك مجال لتجارب أخرى فاشلة(٤٢).

كان بدر الجمالي على ما يبدو يدرك جيدًا أن السر وراء أزمة الدولة العبيدية يكمن في الجنود الأتراك وعدم إخلاصهم وولائهم للدولة، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإن الأتراك كانوا وراء الفشل الذي مُني به بدر في كل من دمشق وصور. وفي ضوء هاتين الحقيقتين اشترط بدر على المستنصر حين استدعاه لإنقاذ دولته – كما يقول ابن ميسر – "أن يستخدم معه عسكرًا، ولا يبقي على أحدٍ من عساكر مصر"(٤٣).

وافق المستنصر بالله على الشرط الذي اشترطه بدر، فما كان من الأخير إلا أن قدم ومعه جنوده – معظمهم من الأرمن – قدموا بحرًا في وقت لا يعد ركوب البحر فيه مأمونًا، وسجل التاريخ وصول بدر إلى عاصمة الدولة العبيدية لليلتين بقيتا من جمادى الأولى سنة ست وستين وأربعمائة للهجرة (١٠٧٤م)(٤٤).

توجهت همة بدر إلى سرعة التخلص من قادة الأتراك، وقد نجحت خطته في ذلك نجاحًا كبيرًا، وذلك بفضل جنوده من الأرمن،

---

(٤٢) فشل بدر في حكم دمشق التي أسند إليه حكمها مرتين، مرة سنة ٤٥٥هـ، وأخرى سنة ٤٥٨هـ، كما أنه لم يتمكن من الاستيلاء على صور مرتين: الأولى في سنة ٤٦٢هـ، والثانية في السنة التالية. فضلاً انظر: ابن الصيرفي، الإشارة، ص٩٤؛ ابن القلانسي، الذيل، ص٩١، ٩٣، ٩٨؛ ابن ظافر، الدول المنقطعة، ج١، ص٢٢٤؛ المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج٢، ص٣١١.

(٤٣) المنتقى، ص٤٠.

(٤٤) ابن ظافر، الدول المنقطعة، ج١، ص٢٢٤؛ المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج٢، ص٣١١.

ويتحدث المقريزي عن الأسلوب الذي تخلص به بدر من قادة الأتراك، فيقول: "وقد رتب أصحابه ليقتل كل واحد أميرًا، ويكون له جميع ما بيده، فلما سكروا وامتد عليهم رواق الليل صار يخرج كل واحد من باب، ويسلمه إلى غلام من غلمانه، ويمضي إلى داره، فيتسلمها بما فيها من الخدم والأموال، فلم يصبح الصباح إلا ورؤوس الجميع بين يديه، وقد أحاط كل رجل من أصحابه على دار أمير من الأمراء، وأحاط بجميع ما كان له"(٤٥).

وهكذا، وفي ليلة واحدة أو في ضربة واحدة، قضى بدر على قادة الأتراك الذين كانوا داء الدولة العبيدية وسبب أزمتها، والمرجح أنهم لو ظلوا على قيد الحياة لجعلوا مهمة بدر في مصر تمنى بالإخفاق.

وانطلاقًا من هذه البداية المشجعة واصل بدر جهوده في تخليص الدولة العبيدية من السلبيات العديدة التي تراكمت خلال السنوات السابقة، "فقويت شوكته، واشتدت وطأته، وعظم أمره، فحسر عن ساعد الجد، وشمر ساعد الاجتهاد، والتقط المفسدين، فلم يبق على أحد منهم، وتطلبهم في القاهرة ومصر حتى أتى على جميعهم القتل"(٤٦).

بعد القضاء على العناصر المناوئة للدولة في محيط العاصمة بقسميها القاهرة ومصر، وجه بدر نشاطه في السنة التالية سبع وستين وأربعمائة للهجرة (١٠٧٤-١٠٧٥م) إلى الوجه البحري، فأوقع بقبيلة لواته، وقتل مقدمهم سليمان اللواتي(٤٧) وابنه، واستصفى جميع ما كان له ولقومه، وأسرف في قتلهم حتى يقال: إنه قتل منهم

---

(٤٥) المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج٢، ص٣١٢؛ فضلاً انظر أيضًا الخطط، ج١، ص٣٨٢.

(٤٦) المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج٢، ص٣١٣.

(٤٧) زعيم قبيلة لواته البربرية أو مقدمهم، وكانت إحدى القبائل المغربية التي قدمت مع جوهر الصقلي عند استيلائه على مصر، سكنوا نواحي دمياط وتنيس، وقد قاوموا نزول بدر ومن معه من الجنود الأرمن عند وصوله، ولكنه أوقع بهم وقتل مقدمهم سليمان اللواتي، وقتل معه الكثير من اللواتيين، وصادر أموالهم، واستولى على أملاكهم. ابن الصيرفي، الإشارة، ص٩٦؛ ابن ميسر، المنتقى، ص٤١؛ المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج٢، ص٣١٤.

عشرين ألفًا(٤٨)، وما فعله بدر بلواته فعل نظيره بكل من المناوئين للدولة في دمياط، والقسم الغربي من الدلتا(٤٩).

وفي سنة تسع وستين وأربعمائة للهجرة (١٠٧٦-١٠٧٧م) وجه بدر الجمالي نشاطه إلى الصعيد، وقد نجح في تحطيم قوة التحالف المعادي للدولة والمكَّون من جهينة والثعالبة والجعافرة(٥٠)، كما أن

---

(٤٨) ابن ظافر، الدول المنقطعة، ج١، ص٢٢٥؛ ابن ميسر، المنتقى، ص٤١؛ المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج٢، ص٣١٤؛ الخطط، ج١، ص٣٨٢.

(٤٩) إقليم الدلتا شمال مصر المعروف بالريف شرقًا وغربًا والمعروف أيضًا بأسفل الأرض (الوجه البحري حاليًا)، ومدينة دمياط من أهم مدنه، وهي ثغر من ثغور الإسلام، وقد سكنت الإقليم عدة قبائل عربية ومغربية، منها قبيلة لواته وقبائل طيئ وقيس وهلال، ومن فروعها بني قرّة وبني سنبس وغيرهم، وكانت هذه القبائل مصدر إزعاج دائم للدولة، وعنصر قوة للثائرين عليها في أحيان كثيرة. المقريزي: البيان والإعراب عما بأرض مصر من الأعراب، تحقيق عبدالمجيد عابدين، القاهرة، ١٩٦١م، ص٧، ٩، ٢٥، ٤٩؛ عبدالمنعم ماجد، المستنصر، ص١٦٤-١٦٥؛ محمد حمدي المناوي، الوزارة والوزراء، ص١٧١، ١٨٤.

(٥٠) جهينة قبيلة عظيمة لها بطون كثيرة، ينتسبون إلى جهينة بن زيد بن ليث بن سعد بن أسلم بن عمر الحافِ بن قضاعة بن مالك الحميري، هاجرت أعداد كثيرة منهم إلى مصر أيام الفتح، وانساقوا من مصر السفلى إلى مصر العليا (الصعيد)، وتركز وجودهم في مناطق الحدود مع بلاد النوبة، كان دورهم كبيرًا في نشر الإسلام في بلاد النوبة، وكانت مشاركتهم في الأحداث خلال العصر العبيدي مؤثرة. أما ثعلبة فهي بطن من طيئ القحطانية ينتسبون إلى ثعلبة بن سلامان بن ثعل بن عمرو بن الغوث بن طيئ، قدموا إلى مصر في فترة مبكرة، ونزلوا إقليم الشرقية، ثم نزحوا في تاريخ لاحق إلى جنوب مصر، وشاركوا القبائل العربية الأخرى النفوذ والتأثير في الأوضاع التي عاشها صعيد مصر. أما الجعافرة فهم المنتسبون إلى جعفر بن أبي طالب وجعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، قدموا إلى مصر في القرن الثالث الهجري، ونزلوا المنطقة الواقعة بين منفلوط وسمالوط، ونزل بعضهم في أسيوط، وكانت لهم الزعامة على القبائل العربية التي استوطنت مصر حتى تاريخ متأخر. لمزيد من التفصيلات عن القبائل العربية في مصر فضلاً انظر: المقريزي: البيان والإعراب عما بأرض مصر من الأعراب. القلقشندي: أبو العباس أحمد بن عبدالله بن محمد (ت ٨٢١هـ /١٤١٨م): نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب، تحقيق إبراهيم الأبياري، القاهرة، ١٩٥٩م. عبدالله خورشيد البري: القبائل العربية في مصر في القرون الثلاثة الأولى للهجرة، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٦٤م. أحمد لطفي السيد: قبائل العرب في مصر، ج١، العقيلات والجعافرة وقبائل أخرى، دار الكتب المصرية، ١٣٥هـ /١٩٣٥م. سنوسي يوسف إبراهيم، زناتة والخلافة الفاطمية، مكتبة سعيد رأفت، عين شمس، القاهرة، ١٩٨٦م.

التوفيق كان حليفه أيضًا في القضاء على كنز الدولة(٥١) الذي تمرد ضد السيادة العبيدية، متخذًا من مدينة أسوان(٥٢) مركزًا لتمرده(٥٣).

وآخر الانتصارات الكبيرة في سجل إنجازات بدر العسكرية حدث في أواخر رجب من سنة تسع وستين وأربعمائة للهجرة (١٠٧٧م) حينما انتصرت قواته انتصارًا ساحقًا على أتسز السلجوقي(٥٤) ومن انضم إليه من مناوئيه ومناوئي الدولة العبيدية(٥٥).

---

(٥١) من ربيعة بن نزار بن معد بن عدنان، حدثت هجرتهم إلى مصر في سنة ٢٣٨هـ/٨٥٢م في خلافة المتوكل العباسي، وتفرقوا في جهات كثيرة، واتخذوا من أسوان مركزًا لهم، ثم انتشروا في مناطق مختلفة من شمال النوبة، وفي سنة ٤١٢هـ/١٠٢٠م ظفر شيخهم أبو المكارم هبة الله بن أبي يزيد بن إسحاق المعروف بالأهوج المطاع وبأبي ركوة الأموي، وهو من ولد هشام بن عبدالملك بن عبدالرحمن الداخل عدو الحاكم بأمر الله العبيدي الذي منحه لقب كنز الدولة، وأصبحت ربيعة بعد ذلك تسمى بني كنز، واستمر تأثيرهم ونفوذهم في صعيد مصر، وهو ما جعلهم في نزاع دائم مع الحكومة المركزية في القاهرة حتى نهاية دولتهم أو إمارتهم في سنة ٨١٥هـ/١٤١٢م. لمزيد من التفاصيل فضلاً انظر: المقريزي، البيان والإعراب، ص٤٢، ٤٦. عطية القوصي: تاريخ دولة الكنوز الإسلامية، ط الثانية، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨١م. محمود السيد، تاريخ القبائل العربية في عصر الدولتين الأيوبية والمملوكية، مؤسسة شباب الجماعة، الإسكندرية، ١٩٩٨م، ص٤٥. أحمد لطفي السيد، قبائل العرب في مصر، ص٥٩، ٦١.

(٥٢) أكبر مدن الصعيد وأهمها، كانت مركزًا لتجمع عدد من القبائل العربية التي هاجرت إلى صعيد مصر، وكانت مركزًا تجاريًا مهمًا وملتقى لعدة طرق وسوقًا لعدة تجارات، كما أنها كانت ثغرًا مهمة على بلاد النوبة تتبع زمن الدراسة كورة القوصية. ياقوت، معجم البلدان، ج١، ص١٩١؛ المقريزي، الخطط، ج١، ص١٠٨، ١٢٧، ١٩٦؛ سعاد ماهر، محافظات الجمهورية العربية المتحدة في العصر الإسلامي، مجلة كلية الآداب، جامعة القاهرة، مج٢١، ج١، مايو ١٩٥٩م، ص٨١، ٨٥.

(٥٣) ابن الصيرفي، الإشارة، ص٩٦؛ ابن ظافر، الدول المنقطعة، ج١، ص٢٢٥؛ ابن ميسر، المنتقى، ص٤٣؛ المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج٢، ص٣١٦.

(٥٤) أتسز بن أوق الخوارزمي عرف بإقسيس، ولقب بالمعظم من أمراء التركمان وأحد قادة السلاجقة في بلاد الشام الذين قضوا على النفوذ العبيدي، كان حسن السيرة خيرًا دينًا، قتله تتش بن ألب أرسلان السلجوقي عند تملكه بلاد الشام في ربيع الأول سنة ٤١٧هـ. ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص١١٢؛ ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص١٢٦.

(٥٥) قاد أتسز في السنة المذكورة حملة إلى مصر هدفها القضاء على الدولة العبيدية، أشرك فيها جموعًا من العرب والتركمان، بلغ عددهم ما يزيد على عشرين ألفًا، واختلفت المصادر في أسباب فشل الحملة، والمشهور أن بدرًا الجمالي =

تعد سنة تسع وستين وأربعمائة للهجرة (١٠٧٧م) سنة حاسمة في مصير الدولة العبيدية، فقد ترتب على تلك الانتصارات الكبيرة التي حققها بدر ورجاله ضد مناوئيه من جهة وأعداء الدولة من جهة أخرى، إعادة فرض السيطرة العبيدية على كل أنحاء الديار المصرية، وهي السيطرة التي تعرضت للانتقاص كثيرًا في السنوات السابقة، كما ترتب على تلك الانتصارات المحافظة على ما بقي من نفوذهم في بلاد الشام، إذ إن انتصار بدر ضد أتسز السلجوقي لا يقل شأنًا وقيمة عن انتصاراته الأخرى؛ وذلك لأنه بهذا الانتصار قد وضع حدًا لمحاولات السلاجقة التي كانت تستهدف انتزاع مصر من العبيديين، كما أسدل الستار على الآمال التي علَّقها مناوئو الدولة العبيدية على التحالف مع القوات السلجوقية والعمل معها، وهي الممثلة للخلافة العباسية.

على أي حال فإن تلك الإنجازات التي حققها بدر في الميادين العسكرية انعكست إيجابيًا وبشكل قوي على الحياة الاقتصادية، وأوضح الأدلة على ذلك ما أشارت إليه المصادر(٥٦) من إعفاء المزارعين من خراج ثلاث سنوات متتالية، وكانت النتيجة إصلاح أوضاع الفلاحين، الذين نشطوا للعمل والإنتاج حتى ترفهت أحوالهم، واستغنوا في أيامه. كما دبت الحياة من جديد في الحركة التجارية،

الإنجازات التي حققها بدر في الميادين العسكرية انعكست إيجابيًا وبشكل قوي على الحياة الاقتصادية

= استطاع استمالة بعض العرب والتركمان، فغدروا بأتسز وتخلوا عنه، فاجتمع عليه جنود مصر وهزموه. لمزيد من التفصيلات عن ذلك فضلاً انظر: ابن القلانسي، الذيل، ص١٠٩، ١١٢. ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص١٢٣-١٢٤. محمد سالم بن شديد العوفي: العلاقات السياسية بين الدولة الفاطمية والدولة العباسية، ط الثانية، بيروت، ١٤٠٣هـ، ص١٣٩ وما بعدها.

(٥٦) ابن ميسر، المنتقى، ص٥١-٥٢؛ المقريزي، الخطط، ج١، ص٣٨٢؛ ماجد، الإمام المستنصر، ص١٨٥.

وأخذ التجار يستقرون في مصر أو يفدون إليها بتجاراتهم، وكانت النتيجة أن استعادت القاهرة مكانتها التجارية من جديد، وذلك بعد نزوح التجار عنها إبان سنوات الشدة(٥٧).

استمر بدر الجمالي في إصلاحاته؛ الأمر الذي أدى إلى إنقاذ الدولة العبيدية من انهيار كان متوقعًا، بل وأعاد إليها قدرًا كبيرًا من قوتها وهيبتها السابقة، أو كما عبَّر المقريزي: "عادت به أبهة الخلافة الفاطمية بعد تلاشي أمرها، وعُمِّرت الديار المصرية بعد خرابها واضمحلال أحوال أهلها"(٥٨).

وقد شملت الأعمال الإصلاحية لبدر جميع المقومات الأساسية للدولة، الاقتصادية والسياسية وأيضًا العسكرية، وللدلالة على النجاح الكبير الذي تحقق نتيجة الإصلاحات ما شهدته الأوضاع الاقتصادية من نشاط وازدهار أدى إلى ثراء الدولة وزيادة أرصدتها المالية، ويكفي أن نعرف أن بدرًا الجمالي قد خلف في بيت المال عند وفاته مبلغ ستة آلاف ألف دينار، وأربعمائة ألف درهم(٥٩).

إن هذا الدور يعد إنجازًا كبيرًا إذا تذكرنا الانهيار الاقتصادي الكامل الذي عانت منه الدولة ولعدة سنوات قبل مجيء بدر وسيطرته على مقاليد الأمور فيها.

قام بدر بجهوده هذه في خدمة الدولة العبيدية بصفته أرمني الأصل كرَّس إخلاصه وولاءه لهذه الدولة، وكان السند الأساسي لبدر في مهامه المتعددة والخطيرة جنوده الذين جاءوا معه من بلاد الشام، والذين يلتقي معظمهم معه في أصله الأرمني، كما يرجَّح أن كثيرًا من الأرمن جاءوا إلى مصر واستقروا بها وعملوا تحت قيادة زعيمهم،

---

(٥٧) ابن ميسر، المنتقى، ص٥٣؛ المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج٢، ص٣٣٠؛ راشد البراوي، حالة مصر الاقتصادية، ص٩٦، ٩٩.

(٥٨) الخطط، ج١، ص٣٨٢.

(٥٩) المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج٢، ص٣٣١.

وعلى أثر هذه التطورات شهدت مصر تغيرات جوهرية في عدد من المجالات ذات التأثير المباشر، فالجيش العبيدي اختفى منه أو على الأقل تضاءل إلى حد كبير وجود العنصر التركي، وفي المقابل احتل الجنود الأرمن مكان الصدارة، كما تغلغل كثيرون من الأرمن إلى المواضع الحساسة في قصر الخلافة وفي المناصب البارزة الأخرى في الدولة(٦٠).

وفي عبارة موجزة يمكن القول عن بدر الجمالي إنه أنقذ الدولة العبيدية من انهيار محقق، أما الثمن الذي حصل عليه بدر مقابل هذا الإنقاذ فإنه ثمن باهظ دفعه الخليفة العبيدي، فقد تخلى المستنصر بالله عن سلطاته كخليفة مكتفيًا بالجوانب الشكلية، أما القوى الحقيقية والفعاليات المؤثرة فقد انتقلت كلها إلى بدر الجمالي الذي يقول عنه ابن ميسر: "وكان يحكم مصر تحكم الملوك، ولم يبق للمستنصر معه أمر، وسلم إليه الأمور"(٦١)، ويقول عنه المقريزي: "فلما كاتبه المستنصر، ودخل إلى القاهرة تحكم في بلاد مصر تحكم الملوك، ولم يبق للمستنصر من أمر، وألقى إليه مقاليد مملكته، وسلم إليه أمور خلافته"(٦٢).

أما ابن تغري بردي فإنه يقول عن هذا الوزير: "وانفرد أمير الجيوش بدر الجمالي بالأمر إلى أن مات في خلافة المستنصر"(٦٣)، وفي مناسبة أخرى يقول عنه: "وصار الأمر كله له، وليس للخليفة المستنصر معه سوى الاسم لا غير"(٦٤).

---

(٦٠) المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج٣، ص٦٠، ٦٢؛ ماجد، الإمام المستنصر، ص١٩٢؛ المناوي، الوزارة والوزراء، ص١٧٨.

(٦١) المنتقى، ص٥٢.

(٦٢) اتعاظ الحنفا، ج٢، ص٣٢٩.

(٦٣) ابن تغري، النجوم الزاهرة، ج٥، ص٣٣.

(٦٤) النجوم الزاهرة، ج٥، ص١٤١.

ولقد أكدت السياسة الداخلية وإدارة شؤون الدولة التي سار عليهما الوزير الجمالي حدوث هذا التطور الرئيس، ويكفي أن ألقي الضوء على مجموعة أحداث مترابطة لها مغزاها البعيد في توضيح ذلك، وتحديد مركز القوة الحقيقي في الدولة العبيدية آنذاك، ففي سنة سبع وسبعين وأربعمائة للهجرة (١٠٨٤م) جعل بدر الجمالي ابنه الأفضل وليًا للعهد، ولقد استخدم المقريزي للدلالة على هذا التطور لفظًا له دلالته، وهو لفظ السلطنة؛ إذ يقول: "وجعله ولي عهده في السلطنة"(٦٥)، واستخدام المقريزي لهذا اللفظ تعبير دقيق عن السلطات الواسعة التي كان يمارسها بدر الجمالي، وهذه السلطات تجاوزت إلى حد بعيد سلطات الوزارة، وانتقلت إلى مستوى سلطات السلطنة، وهو ما يدل بوضوح على التغيير الكبير والخطير في إدارة شؤون الدولة من ناحية، وعلى مدى ما بلغه بدر الجمالي من نفوذ ومركز فيها من ناحية ثانية، الأمر الذي جعله وبكل ثقة يعين ابنه وليًا للعهد من بعده في تطبيق لمبدأ الوراثة، وهو تطور يحدث لأول مرة في الدولة.

والحدث الثاني وقع في سنة سبع وثمانين وأربعمائة للهجرة (١٠٩٤م) وعقب وفاة بدر الجمالي، فقد عيَّن الخليفة المستنصر في وزارته أميرًا اسمه لاون(٦٦)، وفعلاً خلعت عليه خلع الوزارة، ولكن أنصار بدر أكرهوا الخليفة على التراجع عن موقفه، وسحب هذا التعيين، كما فرضوا الأفضل وزيرًا(٦٧)، وبمعنى أدق تنفيذ ما سبق أن رسمه أبوه من جعله وليًا للعهد من بعده.

---

(٦٥) اتعاظ الحنفا، ج٢، ص٣٢١.

(٦٦) ويسمى صافيًا، ويلقب بأمين الدولة، كان من أجلِّ غلمان بدر الجمالي وممن بلغ عنده درجة عالية من المكانة والثقة، قبض عليه الأفضل بن بدر ليأمن خيانته واستمر في معتقله إلى أن مات. ابن الصيرفي، الإشارة، ص٩٨، ص١٠٠؛ ابن ميسر، المنتقى، ص٥٤؛ المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج٢، ص٣٣١-٣٣٢.

(٦٧) المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج٢، ص٣٣١.

أما الحدث الثالث فقد وقع في السنة نفسها، وبعد شهور من الحدث السابق، حيث نجح الأفضل من إبعاد منصب الخلافة عن ولي العهد نزار بن المستنصر(٦٨)، وتعيين ابن آخر من أبناء المستنصر في ذلك المنصب هو أبو القاسم أحمد "المستعلي بالله"، والذي كانت تربطه بأسرة بدر الجمالي رابطة المصاهرة(٦٩).

وكما هو واضح من تلك الأحداث الثلاثة فإنه يتأكد لنا من خلالها أن مركز القوة الحقيقي في الدولة العبيدية قد انتقل إلى أسرة بدر الجمالي، وأنه لم يتبق للمستنصر ومن جاء بعده سوى الجوانب الشكلية.

وللحقيقة أقول: إن الثمن الذي دفعته الخلافة العبيدية لبدر الجمالي وأسرته لم تتضح كل أبعاده في عهد المستنصر وأيام بدر

---

(٦٨) هو الابن الأكبر للمستنصر، وكان مرشحًا للخلافة من بعده لكنها صرفت عنه إلى أخيه أبي القاسم أحمد، فلجأ إلى الإسكندرية يدعمه عدد من الأمراء في مقدمتهم نصر الدولة أفتكين وابن مصال اللكّي الذي كان نزار ينوي تعيينه وزيرًا بدل الأفضل بن بدر، وتحصن في الإسكندرية، وتلقب بالمصطفى لدين الله، ولعن الأفضل على المنابر، فخرج الأفضل لقتاله، فحاصره في الإسكندرية مرتين في سنة ٤٨٨هـ/١٠٩٥م، نجح في الثانية في القبض على نزار ومن معه من الأمراء، فكان آخر العهد بهم. ويعد خروج نزار ثم مقتله أول انقسام حقيقي في الدعوة العبيدية، وظهر ما يعرف بالإسماعيلية النزارية المؤيدين لخلافة نزار في مقابل الإسماعيلية المستعلية نسبة إلى الخليفة المعين المستعلي بالله، ولرفض النزارية للأوضاع التي فرضها الأفضل بعد اختفاء نزار ووفاته، خرجوا من مصر إلى بلاد الشام والعراق وبلاد فارس، وكان منهم إسماعيلية ألموت الذين عرفوا بطائفة الحشيشيةٍ أو الباطنية، وهناك غيرهم في جهات أخرى. لمزيد من التفصيل عن ذلك فضلاً انظر: ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج٨، ج٩. المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج٢، ج٣. أيمن فؤاد سيد: تاريخ المذاهب الدينية في بلاد اليمن حتى نهاية القرن السادس الهجري، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، ١٩٨٨م. عارف تامر، تاريخ الإسماعيلية (الدولة النزارية)، رياض الريس للكتب والنشر، لندن، ١٩٩١م. محمد كامل حسين: طائفة الإسماعيلية، تاريخها، نظمها، عقائدها، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٥٩م.

(٦٩) الفارقي، أحمد بن يوسف بن علي (ت بعد سنة ٥٦٦هـ/١١٧١م): تاريخ ميافارقين وآمد (تاريخ الفارقي)، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٣٩٤هـ، ص٢٦٧؛ ابن ميسر، المنتقى، ص٧٠، ص٩٩؛ المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج٢، ص٣٢١.

الجمالي، بل اتضحت في الفترة اللاحقة التي سيطر فيها الأفضل بن بدر سيطرة كاملة على الدولة؛ مما يحمل الباحث أن يقول عنها وبحق: إنها الفترة الذهبية إبان السيادة الأرمنية.

الفترة الذهبية:

يعد عهد الأفضل العهد الذهبي لنفوذ الأرمن في الدولة العبيدية، فمن ناحية أخذ يطبِّق مبدأ الوراثة في منصب الوزارة وإمرة الجيش، وهذه هي المرة الأولى في تاريخ الدولة العبيدية التي تصير فيها الوزارة وراثية، وهذا إنما هو دليل على أن بدر الجمالي لم يكن ينظر إلى منصب الوزارة في إطاره التقليدي المعروف، بل إنه جعل منه منصبًا يفوق مدلوله بكثير، إذ جعله منصبًا مساويًا لمنصب السلطان، وهذا ما يمكن استخلاصه من إيراد كلمة السلطنة في العبارة التي أوردها المقريزي، كما لا يغيب عنا الألقاب التي استخدمها في أثناء وزارته، وزادت عن ألقاب الخليفة في مؤشر يدل على أن الطموح الأرمني لم يكن محصورًا في الوزارة فقط.

ومن جانب آخر سجَّل التاريخ للجيوشية (أتباع أمير الجيوش بدر الجمالي) ومعظمهم من الأرمن، أنهم تحدوا الخليفة المستنصر بالله وفرضوا عليه إرادتهم، ويتضح هذا من الحوار الحاد الذي دار بين الجانبين، والذي بينه المقريزي بقوله: "وشرع الأمراء في مخاطبة المستنصر في إبطال وزارة لاون، وهو يأبى عليهم حتى طال الخطاب، فقال المستنصر: إذا أقمنا قصبة قبل أمرنا، فقال الأمراء: إذا أقمت هذه القصبة قطعناها بهذه السيوف، وجردوا سيوفهم"(٧٠).

ويبدو من هذا الحوار أن المستنصر كان يريد تحرير نفوذه من تسلط الأرمن، غير أن الجانب المناوئ لرغبة المستنصر بالله كان أقوى منه، وبتأثير هذه القوة أرغم الخليفة العبيدي على إبطال وزارة

---

(٧٠) اتعاظ الحنفا، ج٣، ص٢٨.

لاون، وإسنادها إلى الأفضل، وبمعنى أدق: أرغم على إقرار ما أراده بدر الجمالي قبل ذلك بأكثر من عشر سنوات حينما جعل ابنه وليًا للعهد من بعده.

ويغلب على الظن أن الأمير لاون هذا كان أرمني الجنس؛ لأنه كان أحد غلمان بدر المقربين(٧١)، وفي ضوء هذا يستطيع الباحث أن يتبين بعض ملامح الخطة التي حاول المستنصر بالله أن يسلكها في محاربة تغلغل النفوذ الأرمني، وهذه الخطة كانت تقوم على تفريق وحدة الأرمن ببذر الشقاق بينهم واستعداء بعضهم على بعض، فتضعف قوتهم، ومن ثم يسترد الخليفة العبيدي نفوذه من جديد.

وإذا لم يكن باستطاعة المستنصر بالله تنفيذ خطته هذه في حياة بدر الجمالي، فإنه كان بمقدوره -حسب اعتقاده- تنفيذها بعد مماته؛ لذا استغل الظرف الذي أعقب وفاة أمير الجيوش فقام بمحاولته، غير أن أتباع بدر وابنه الأفضل نجحوا في إفشال ذلك.

ويبدو أن الأفضل كان يعمل لتحقيق خطة وضعها أبوه بدر، وهي خطة محكمة طويلة المدى لسيطرة أسرته على الدولة العبيدية، ومن الركائز الأساسية للوصول إلى هذه الغاية: المصاهرة التي تمت بين البيتين، فقد زوج بدر ابنته ست الملك أبا القاسم أحمد بن المستنصر(٧٢)، وليس واضحًا على وجه التحديد ما إذا كان المستنصر أو بدر الجمالي هو الذي اتخذ المبادرة لإقامة هذه المصاهرة، ولكن المؤكد أن فكرة المصاهرة إن لم تكن المبادرة فيها من قبل أمير الجيوش فإنها قد وجدت ترحيبًا كبيرًا منه؛ وذلك لأنها ليست

---

(٧١) ابن الصيرفي، الإشارة، ص٩٨، ص١٠٠.

(٧٢) أبو القاسم أحمد بن المستنصر بالله أبو تميم معد بن علي، ولد في العشرين من المحرم سنة ٤٦٧هـ/١٠٧٣م، وبويع له بعد وفاة أبيه في الثامن عشر من ذي الحجة سنة ٤٨٧هـ/١٠٩٤م، وبقي فيها سبع سنين وشهرين تقريبًا، مات يوم الثلاثاء ١٣ صفر سنة ٤٩٥هـ/١١٠١م، وعمره سبع وعشرون سنة وشهران. ابن ظافر، الدول المنقطعة، ج١، ص٢٢٩، ٢٣٤؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج١، ص١٧٨.

مصاهرة عادية، بل إنها تعني من وجهة نظر الزعيم الأرمني إحكام سيطرة أسرته على الدولة العبيدية، فهي في هذا الإطار تعد مصاهرة سياسية، وفي ضوء هذا الفهم يمكن إدراك تبني الأفضل لخلافة المستعلي بالله، حتى ولو كان ذلك ضد رغبة وتعاليم ووصية المستنصر بالله، وفي ضوء هذا الفهم أيضًا يمكن تفسير التطورات التي تتابعت عقب وفاة بدر في سنة سبع وثمانين وأربعمائة للهجرة (١٠٩٤م) بأنها كانت في الحقيقة حلقة في سلسلة أعمال ترمي في النهاية إلى تحقيق الخطة التي رسمها بدر الجمالي(٧٣).

ويرجع بنا التاريخ إلى الوراء عدة سنوات، فنجد أن العلاقات كانت متوترة بين نزار بن المستنصر من ناحية والأفضل بن بدر من ناحية أخرى، وأن سبب هذا التوتر هو ما كان يعمد إليه الأفضل من إظهار التعالي والاحتقار للأسرة الحاكمة، كما هو الحال عند دخوله قصر الخلافة راكبًا، الأمر الذي حرك ثائرة الأمير نزار، فما كان منه إلا أن صاح قائلاً: "انزل يا أرمني يا نجس"(٧٤).

ويسجل التاريخ أيضًا أن الأفضل كان يعارض الأمير نزار في أموره، ويرد شفاعته، ويضع من قدره، ولا يرفع رأسًا لأحدٍ من غلمانه وحاشيته، بل يحتقرهم ويقصدهم بالأذى والضرر(٧٥).

هذه الخلفية السيئة للعلاقات بين نزار والأفضل، إضافة إلى سياسة الأفضل من أجل السيطرة على الدولة، هما السبب في عدم استجابته لما أراده المستنصر في أثناء مرضه الأخير من تجديد البيعة لابنه نزار، بل إنه دافعه وأخذ يسوِّف ويماطل حتى توفي الخليفة(٧٦).

---

(٧٣) فضلاً انظر الحاشية رقم (٦٨).

(٧٤) ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص١٧٣؛ المقريزي، الخطط، ج١، ص٤٢٣.

(٧٥) المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج٣، ص١٢؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٥، ص١٤٢.

(٧٦) ابن ميسر، المنتقى، ص٦٠؛ المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج٣، ص١٣، ١٥.

إن نجاح الأفضل في عدم تمكين المستنصر بالله من تجديد البيعة لابنه نزار يعد خطوة إيجابية لصالحه في صراعه من أجل تحديد مستقبل الدولة العبيدية بما يتفق وأهدافه السياسية، أما الخطوة الإيجابية الثانية فكانت في نجاحه في تخويف قادة الجيوش من نزار لكبر سنه والتفاف الكثير من الأتباع حوله، أما أحمد "المستعلي بالله "الذي أشار به فإنه كان صغيرًا لا يخشى منه على مستقبل نفوذهم(٧٧).

والتطور الإيجابي الثالث الذي خطاه الأفضل هو نجاحه في إثارة الفرقة بين أبناء المستنصر بالله، ففي الوقت الذي اتخذ فيه الأمير نزار موقفًا عدائيًا صريحًا ضد الأفضل والمستعلي نجد أن الأميرين إسماعيل وعبدالله قد بايعا أخاهما الأصغر بالخلافة(٧٨)، ويعني هذا أنه في الوقت الذي استطاع فيه الأفضل أن يكوِّن مع الجيوشية جبهة قوية فإن أولاد المستنصر بالله كانوا متفرقين، وهذا ما ساعده في النهاية على تحقيق مخططه في السيطرة على الدولة العبيدية من خلال زوج أخته الخليفة الصغير والضعيف المستعلي بالله.

لقد أكدت المصادر التاريخية على أن فترة الأفضل بن بدر الجمالي هي الفترة الذهبية لسيطرة الأرمن على شؤون الدولة العبيدية وعلو شأنهم وقوة نفوذهم فيها، ونجد أن تلك المصادر تجمع على حقيقة واحدة، هي أن الكلمة الأخيرة والحاسمة في شؤون الدولة الفاطمية كانت للأفضل، وأن نصيب المستعلي بالله من الخلافة لم يكن يتعدى الاسم والمظاهر الشكلية.

يقول ابن القلانسي عن المستعلي أنه كان "لازمًا قصره كعادة أبيه المستنصر بالله منكفئًا بالأفضل"(٧٩)، ويقول ابن ميسر عنه: "ولم يكن

---

(٧٧) ابن ظافر، الدول المنقطعة، ج١، ص٢٣١؛ ابن ميسر، المنتقى، ص٦٢-٦٣.

(٧٨) الفارقي، تاريخ الفارقي، ص٢٦٧-٢٦٨؛ المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج٣، ص١٣-١٤؛ ماجد، الإمام المستنصر، ص١٩٥-١٩٦.

(٧٩) ذيل تاريخ دمشق، ص١٤١.

له سيرة تذكر، فإن مدبِّر أموره الأفضل"(٨٠)، ويقول الذهبي: "وما كان للمستعلي مع أمير الجيوش حل ولا ربط"(٨١)، أما المقريزي فيقول: "ولم يكن للمستعلي سيرة تذكر، فإن الأفضل كان يدبر أمر الدولة تدبير سلطنة وملك لا تدبير وزارة"(٨٢)، ويقول أيضًا: "ولم يكن للمستعلي مع الأفضل أمر ولا نهي ولا نفوذ"(٨٣)، ويقول ابن تغري بردي عن الأفضل: "فلما ملك الأفضل سار على سيرة أبيه مع الخلفاء من الحجر والتدقيق عليهم"(٨٤)، ويقول عن الخليفة المستعلي: "وكان المتصرف في دولته وزيره الأفضل سيف الإسلام شاهنشاه بن أمير الجيوش"(٨٥).

من هذه النصوص يتبين لنا بوضوح أن الأفضل كان يتحكم في الدولة العبيدية تحكمًا مطلقًا، وأنه لم يكن مجرد وزير، وإنما كان بمثابة ملك أو سلطان، وأمر طبيعي بعد ذلك أن يكثر الأرمن في مصر على أيامه، وأن يحتل بعضهم مراكز مؤثرة وحساسة في إدارة الدولة، مساندةً للأفضل في تحكمه في مصائرها، وحتى أولئك الذين لم يكونوا أرمنًا في أصلهم الجنسي فإنهم قد تبنوا أفكار الأرمن ومخططاتهم التي ترمي في النهاية إلى السيطرة على مقدرات الدولة العبيدية.

وتمر الأعوام ويزداد نفوذ الأرمن في مصر حتى كانت سنة خمس وتسعين وأربعمائة للهجرة (١١٠١م) وفي شهر صفر منها، حيث تحققت في هذا التاريخ خطوة كبيرة أخرى على طريق سيطرة

---

(٨٠) المنتقى، ص٦٩.

(٨١) تهذيب سير أعلام النبلاء، ج٢، ص٧٦.

(٨٢) اتعاظ الحنفا، ج٣، ص٢٧.

(٨٣) الخطط، ج١، ص٣٥٧.

(٨٤) النجوم الزاهرة، ج٥، ص٢٢٢.

(٨٥) النجوم الزاهرة، ج٥، ص١٥٣.

الأفضل بن بدر الجمالي على الدولة، فبعد وفاة الخليفة المستعلي بالله، خلفه ابنه الطفل أبو علي المنصور، وقد أقامه الفضل في منصب الخلافة تحت لقب "الآمر بأحكام الله"(٨٦).

ونستطيع أن نتبين مقدار نفوذ الأفضل في الدولة العبيدية وتحكمه في مقدراتها وشؤونها كافة إذا نظرنا إلى أمرين: الأول هو سن الخليفة الجديد، فقد كان عمر الآمر عندما ولي منصب الخلافة خمس سنوات، والأمر الثاني هو أن أم الآمر هي ست الملك ابنة بدر الجمالي وأخت الأفضل شاهنشاه، وهذا التطور عامل مؤثر في التحكم المطلق الذي لا تحده حدود، والذي صار يتمتع به الأفضل في أمور هذه الدولة.

نعم، فالأفضل صار منذ هزيمته للأمير نزار أقوى الشخصيات السياسية في مصر العبيدية، وقد أقام قوته على ثلاث قواعد: القاعدة الأولى ضعف شخصية المستعلي بالله، الذي اكتفى بالجوانب الشكلية لمنصب الخلافة، تاركًا للأفضل - أخو زوجته - جميع الصلاحيات الموجهة والمنفذة لسياسات الدولة على المستويين الداخلي والخارجي. وتتمثل القاعدة الثانية في آلاف العناصر الأرمنية الذين أصبحوا جزءًا من الحياة السياسية في الدولة العبيدية، وخاصة في الجيش والمناصب ذات العلاقة المباشرة بقصر الخلافة. أما القاعدة الثالثة فهي القوة الاقتصادية، التي استغلها الأفضل الذي أدار مصر وكأنها ملك خاص له، حتى كوَّن لنفسه ثروة طائلة، وكذلك كوَّن الكثير من الأرمن لأنفسهم ثروات مالية كبيرة.

واستنادًا إلى القواعد الثلاث السابقة، سارت أوضاع الدولة العبيدية لصالح الأفضل وتمكين سيطرته عليها.

---

(٨٦) ابن القلانسي، الذيل، ص١٤١؛ ابن ظافر، الدول المنقطعة، ج١، ص٢٣٤-٢٣٥؛ ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص٢٠٥.

وضمن تطورات الأوضاع في الدولة وقع حادث جدير بالاهتمام أشارت إليه المصادر سريعًا دون نظر أو تناول، يتعلق بظروف موت المستعلي، فابن ميسر يشير إلى ذلك بقوله: "ويقال: إن المستعلي قُتل سرًا، وقيل بأنه سُم فمات"(٨٧)، ومثل هذا نجده عند الذهبي الذي يقول: "ويقال: إنه سُم وقُتل سرًا"(٨٨)، وكذلك لدى المقريزي الذي يقول: "وقيل: إن المستعلي مات مسمومًا، وقيل: بل قُتل سرًا"(٨٩).

مثل هذه الإشارات السريعة والعابرة لا يستطيع الباحث أن يمر عليها دون وقفة متأنية، فلماذا لا تكون هذه الإشارات معبرة عن الحقيقة، ويكون الباعث على التخلص من المستعلي هو ما بدا منه في ممارسة نفوذه وسلطانه، ولم يكن لهذه الرغبة أن تتحقق إلا على حساب الأفضل، أي أنه أصبح بين خيارين؛ إما أن يتخلى عن سلطانه للخليفة الشرعي، وفي هذه الحالة يكون قد هدم كل ما بناه أبوه من قبل، وما قام به هو من أعمال هدفها ترسيخ نفوذ البيت الجمالي في الدولة العبيدية، والخيار الثاني هو التخلص من المستعلي قبل أن يستفحل ضرره ويشتد خطره، وكانت كل الظروف مساعدة للأفضل في تبني الخيار الثاني وتنفيذه، فالكثير من أتباعه من الأرمن وغيرهم كانوا يعملون في مراكز حساسة متصلة بقصر الخلافة، كما أن أخته ست الملك، زوجة المستعلي، قد تسهل لأخيها الأفضل حتى دون أن تدري، مهمة التخلص من الخليفة، وهكذا أعلن في صفر سنة خمس وتسعين وأربعمائة للهجرة (١١٠١م) عن وفاة المستعلي بالله، لتبدأ عند ذلك صفحة جديدة في سيطرة الأفضل على شؤون الدولة العبيدية(٩٠).

---

(٨٧) المنتقى، ص٧٠.

(٨٨) التهذيب، ج٢، ص٧٦.

(٨٩) اتعاظ الحنفا، ج٣، ص٢٨.

(٩٠) ابن الصيرفي، الإشارة، ص١٠٠-١٠١؛ ابن القلانسي، الذيل، ص١٤٨؛ ابن ميسر، المنتقى، ص٧٤-٧٥.

إن ما أوردته المصادر التاريخية بشأن احتمال موت المستعلي عن طريق السم إنما توره في إطار الشك وعدم اليقين، وإن الشك لا يمكن للباحث أن يقيم عليه استنتاجًا علميًا، ولكن الأمور التي يمكن فيها الوصول إلى اليقين أو إلى درجة معينة منه -وهذا ما لا يمكن توافره في حالة المستعلي، لأنه كان محصورًا في القصر ومعظم العاملين في القصر من رجال ونساء كانوا من أتباع الأفضل- فمن الممكن في هذه الحالة تنفيذ الجريمة في أضيق نطاق، وفي دائرة من السرية المحكمة بحيث لا يتسرب إلى الخارج أي خبر أو إشارة تدل عليها. وبناءً على ذلك فإن للباحث أن يربط بين الأحداث والتطورات، وأن يجعل من هذا الربط تعويضًا عن اليقين المفقود.

على أية حال، غاب المستعلي بالله عن مسرح الحياة السياسية، وحل محله طفل في الخامسة من العمر، هو الآمر بأحكام الله ابن أخت الأفضل، ومعنى هذا أن الباب قد فتح على مصراعيه أمام المزيد من تسلط الأرمن على مقدرات الدولة العبيدية، وهذا ما سجله التاريخ على مدى سنوات عديدة تالية، فالأفضل هو المتحكم الأول في السياسة الداخلية والخارجية، والأفضل هو صاحب الكلمة الحاسمة في شؤون الدولة الاقتصادية، بل إن استبداده وتحكمه تضاعف مع بداية حكم الآمر، وأخذ يوجه سياسة الدولة بما يخدم مصالحه ومخططاته، وإلى جانب الأفضل كان يوجد عدد من أولاده الذين شاركوه في الحكم وتدبير شؤون الدولة، فضلاً عن أعداد كبيرةٍ من العناصر الأرمنية انبثوا في الكثير من المراكز الحساسة في الجيش وفي الإدارة وفي قصر الخلافة(٩١).

النكبة:

بقيت الأمور تسير على ذلك المنوال سنوات وسنوات، واعتقد الأفضل أن الأحداث كلها تسير في المسار الذي رسمه لها، بيد أن

---

(٩١) المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج٣، ص٦٠، ٦٢؛ ماجد، الإمام المستنصر، ص١٩٢.

تيارًا آخر أخذ يتشكل، تيار معاد للأفضل ولازدياد نفوذ الأرمن، كان مركز هذا التيار هو قصر الخلافة العبيدية، أما الموجه له فهو الآمر الذي شب عن الطوق وتجاوز العشرين من العمر، ويغلب على الظن أن الآمر قد عرف بطريقة ما أن أباه قد قُتل غيلة، وأنه كان للأفضل دور في التخلص منه، وأن مثل هذا المصير ينتظره هو إذا فكَّر في ممارسة سلطاته وصلاحياته كخليفة، وهنا كان من الضروري بالنسبة للآمر أن يتخلص من الأفضل قبل أن يلجأ الأخير إلى التخلص منه كما تخلص من أبيه من قبل.

شهد اليوم الأخير من رمضان سنة خمس عشرة وخمسمائة للهجرة (١١٢١م) نهاية الأفضل بن بدر الجمالي، وذلك على أيدي أربعة رجال انتهزوا الفرصة، وهاجموه بالسكاكين حتى قضى نحبه(٩٢).

تلقي بعض المصادر مسؤولية اغتيال الأفضل على بعض العناصر النزارية(٩٣)، وتتهم مصادر أخرى الآمر صراحة بالتآمر على قتل الأفضل(٩٤)، وأن تصرف الآمر كان رد فعل لما قام به الأفضل ضده من الحجر عليه، ومنعه من ممارسة شهواته والتمادي في ظلمه وطغيانه، وهذا التبرير ليس سوى انسياق مع الدعاية الأرمنية التي كانت تركز على إبراز الأعمال الطيبة التي تصدر عنهم التي تخدم مصالح المسلمين، وفي الوقت نفسه تحاول أن تضع من شأن الخلفاء العبيديين على أساس كراهيتهم للشعب والعمل ضد مصلحته، بل وضد القيم الإسلامية، وستتضح لنا أبعاد هذه السياسة في مناسبة لاحقة.

---

(٩٢) ابن القلانسي، الذيل، ص٢٠٣-٢٠٤؛ ابن ظافر، الدول المنقطعة، ج١، ص٢٣٥؛ ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص٣٠٣.

(٩٣) ابن ميسر، المنتقى، ص٨٠-٨١؛ ابن أيبك، الدرة المضيئة، ص٤٨٦؛ حسن إبراهيم، تاريخ الدولة الفاطمية، ص١٧٣، ١٧٥.

(٩٤) ابن القلانسي، الذيل، ص٢٠٣؛ ابن ظافر، الدول المنقطعة، ج١، ص٢٣٥؛ ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص٣٠٣.

ومهما يكن من أمر، فقد سجل التاريخ للآمر أنه بعد التخلص من الأفضل قد استعاد قدرًا كبيرًا من سلطاته كخليفة، وقد تمثل ذلك في إخماده وبسرعة للحركة التي كان أبناء الأفضل يهدفون من ورائها إلى أن يفرضوا أخاهم الأكبر وزيرًا، حيث اعتقلهم جميعًا(٩٥)، ثم أوعز بقتلهم، وكانوا نحو مائة من الذكور ما بين صغير وكبير(٩٦).

وأيضًا باشر الآمر أمور الدولة بنفسه سواء في الإشراف على نقل ممتلكات الأفضل إلى قصور الخلافة، أو في تشييع جنازته وتلقي العزاء فيه(٩٧)، وكانت هذه المباشرة استجابة من الآمر لما طلبه القائد المأمون البطائحي الذي بعث إلى الآمر رسالة عاجلة يقول فيها: "أدركني وتسلَّم ملكك؛ لئلا نغلب عليه أنا وأنت"(٩٨).

لقد تحدث كل من ابن ظافر(٩٩) وابن ميسر(١٠٠) وابن خلكان(١٠١) عن أموال الأفضل وتحفه وجواهره بشيء من الإسهاب، ومن مراجعة ما ذكر من أقوال نتبين أن القوة الاقتصادية للأفضل كانت تفوق بكثير قوة الدولة العبيدية، ومن جانب آخر تتضح لنا قيمة الإنجاز الكبير الذي حققه الآمر حينما تخلص من الأفضل وحينما استرد ممتلكاته وممتلكات أسرته.

يعد التخلص من الأفضل ومن عدد كبير من أبناء أسرة بدر الجمالي ضربة قوية وجهت بصفة خاصة إلى التحكم والسيطرة

---

(٩٥) ابن ميسر، المنتقى، ص٨٠؛ ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص٣٠٣؛ ابن أيبك، الدرة المضيئة، ص٤٨٧؛ المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج٣، ص٦٢.

(٩٦) ابن ميسر، المنتقى، ص٨٠؛ المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج٣، ص٦٢.

(٩٧) ابن القلانسي، الذيل، ص٢٠٤؛ ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص٣٠٣؛ المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج٣، ص١٣٢.

(٩٨) النويري: شهاب الدين أحمد بن عبدالوهاب (ت ٧٣٢هـ/١٣٣٢م): نهاية الأرب في فنون الأدب، ج٢٨، تحقيق محمد محمد أمين ومحمد حلمي محمد أحمد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٤١٣هـ، ص٢٩٧.

(٩٩) الدول المنقطعة، ج١، ص٢٣٩.

(١٠٠) المنتقى، ص٧٩-٨٠.

(١٠١) وفيات الأعيان، ج٢، ص٤٥١.

اللذين مارستهما الأسرة في الدولة العبيدية، كما أن هذا التخلص كان ضربة قوية أيضًا تلقاه بصفة عامة النفوذ الأرمني الذي كان ملاحظًا في مختلف مظاهر الحياة السياسية والإدارية والاقتصادية للدولة.

وكان على الآمر، كي يدعم خطوته السابقة، أن يبتعد بمنصب الوزارة عن بيت الجمالي بصفة خاصة، وعن الأرمن بصفة عامة، وفي خطوة أولى تحقيقًا لهذا الهدف أسند الآمر وزارته إلى المأمون البطائحي الذي يقال: إنه كان مشاركًا للآمر في تدبير اغتيال الأفضل(١٠٢)، وهو وإن كان أرمينيًا بالانتماء فإنه لا يمت إلى الأصل الأرمني بأي صلة.

ولكن يبدو أن طول وزارة بدر الجمالي وابنه الأفضل، وما كانا يمارسانه من سلطات مطلقة قد رسخ في أذهان الجميع فكرة استبداد الوزراء بالحكم على حساب نفوذ الخلفاء، غير أن الوصول إلى هذه الغاية مع الخليفة الآمر كانت مهمة عسيرة، ومن ثم فكّر الوزير الجديد في التخلص من الآمر، والإتيان بخليفة مطواع أو سلبي، هو الأمير جعفر(١٠٣) بن المستعلي بالله، ومن حسن حظ الآمر أنه أحيط علمًا بتدبير الوزير في مرحلة مبكرة، فعاجل الوزير وقبض عليه وعلى إخوته الخمسة، وعلى البارزين من أهله وخواصه، وذلك في شهر رمضان سنة تسع عشرة وخمسمائة للهجرة (١١٢٥م)، ثم قتله وصلبه في سنة ثنتين وعشرين وخمسمائة للهجرة (١١٢٨م)(١٠٤).

إن تجربة الآمر مع وزيره المأمون البطائحي حملته على ألا يقيم أحدًا في منصب الوزارة، وفي هذا تحقيق لهدفه من إبعاد منصب

---

(١٠٢) ابن القلانسي، الذيل، ص٢٠٤؛ ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص٣٠٣؛ المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج٣، ص١٣٢.

(١٠٣) لم أجد له ترجمة فيما رجعت إليه من مصادر.

(١٠٤) ابن القلانسي، الذيل، ص٢١٢؛ ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص٣١٩؛ ابن ميسر، المنتقى، ص١١١.

الوزارة عن الأرمن نهائيًا، لذا أدار الدولة العبيدية وباشرها بنفسه حتى اغتياله في أوائل ذي القعدة سنة أربع وعشرين وخمسمائة للهجرة (١١٣٠م)(١٠٥).

وهكذا بدأ وكأن الآمر بالله قد حرر الدولة العبيدية بصفة نهائية وحاسمة من تسلط الأرمن ونفوذهم واستبدادهم.

ذروة التحدي:

شهد الشهر قبل الأخير من سنة أربع وعشرين وخمسمائة للهجرة (١١٣٠م) سلسلة من التطورات السريعة والمتلاحقة أسفرت عن وصول التحدي الأرمني للبيت العبيدي إلى الذروة، وتبدأ سلسلة الأحداث باغتيال الآمر في الثامن من ذي القعدة، وقد ترتب على ذلك حالة من الفوضى وعدم الوضوح بالنسبة لمنصب الإمامة، فمن القائل: إن الآمر أنجب قبل وفاته بثمانية شهور ابنًا أسماه أبا القاسم الطيب، وجعله ولي عهده(١٠٦)، وقائل بأنه لم ينجب، وانتقل الأمر بعده إلى ابن عمه الأمير عبدالمجيد الحافظ(١٠٧)، وإلى قائل: إنه لم ينجب، ولكن ترك إحدى نسائه حاملاً، وقد عمد القائلون بهذا الرأي الأخير إلى الأمير عبدالمجيد، وبايعوه كفيلاً أو نائبًا عن المولود المنتظر(١٠٨)، وقد عهد الكفيل بوزارته إلى هزار الملوك.

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى شعر عدد من القادة وبالذات الأرمن منهم أن اتجاه الأحداث بهذا الشكل لن يكون في صالحهم، ومن ثم تحركوا ونادوا بأبي علي أحمد بن الأفضل وزيرًا، وقالوا: هو

---

(١٠٥) ابن ظافر، الدول المنقطعة، ج١، ص٢٤٠؛ ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص٣١٩؛ ابن ميسر، المنتقى، ص١١١؛ ابن خلكان، وفيات، ج٥، ص٢٩٩.

(١٠٦) ابن ميسر، المنتقى، ص١٠٩؛ المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج٣، ص١٢٨.

(١٠٧) ابن القلانسي، الذيل، ص٢٢٨-٢٢٩؛ ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص٣٣٢؛ ابن خلكان، وفيات، ج٥، ص٣٠٢.

(١٠٨) ابن ظافر، الدول المنقطعة، ج١، ص٢٤٠؛ ابن أيبك، الدرة المضيئة، ص٥٠٥؛ المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج٣، ص١٣٧.

الوزير بن الوزير، واشتد الضغط من قبل هذا الفريق، وحوصر قصر الخلافة، فما كان من الحافظ إلا أن رضخ لمطالبهم، ونزعت خلع الوزارة عن هزار الملوك الذي لم تدم وزارته سوى نصف يوم، ولم تهدأ ثائرتهم إلا بعد أن ألقيت إليهم رأس الوزير المغلوب على أمره(١٠٩).

إن فرض الجند الثائرين لأبي علي بن الأفضل في منصب الوزارة شبيه بما حدث عقب وفاة بدر الجمالي، عندما عيَّن المستنصر في منصب الوزارة أميرًا اسمه لاون، ولكن أتباع بدر ثاروا، وأرغموا الخليفة على تعيين الأفضل في المنصب الذي كان يشغله أبوه، وقد مارس الأفضل طوال وزارته التي استغرقت حوالي ثمانية وعشرين عامًا استبدادًا وتحكمًا مطلقًا في الدولة العبيدية، غير أن ما قام به ابنه بعد ذلك على مدى وزارته لا يمكن أن يوصف إلا بأنه ذروة التحدي للأسرة العبيدية.

وتتمثل هذه الذروة في عدة أعمال منها: أنه أحاط بالحافظ وسجنه مقيدًا في قصره، ومنها أنه نقل جميع ما كان في قصور العبيديين من الأموال والذخائر إلى دار الوزارة، وبلغ التحدي ذروته حينما ألغى الكثير من شعائر الخلافة العبيدية(١١٠)، وأخذ يدعو للقائم المنتظر، وضرب الدراهم باسمه، ونقش عليها عبارة "الله الصمد الإمام أحمد"(١١١).

ومعنى هذا أن الأكمل قد أقدم على ما لم يفعله أبوه الأفضل أو جده بدر، إنه أقدم على إسقاط النظام العبيدي، فها هو الحافظ

---

(١٠٩) المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج٣، ص١٣٧، ١٣٩.

(١١٠) ابن ظافر، الدول المنقطعة، ج١، ص٢٤١؛ ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص٣٣٢؛ المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج٣، ص١٤٣.

(١١١) ابن ميسر، المنتقى، ص١١٦؛ النويري، نهاية الأرب، ج٢٨، ص٢٩٧؛ المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج٣، ص١٤٣-١٤٤.

سجين لا حول له ولا طول، وها هي ذي شعائر الدولة أخذت تختفي وتحل محلها شعائر أخرى، وها هي ذي العملة لم تعد تحمل اسم الخليفة العبيدي، كما أن القضاء قد توزع بين أربعة قضاة كل يحكم ويورِّث بمذهبه(١١٢).

وهذا التصرف إنما هو دليل على أن الأكمل قد أكمل ما كان يخطط له أبوه وجده من قبل، كما يدل أيضًا على أن الأكمل، بوصفه أرمني الأصل، قد صار صاحب الدولة العبيدية، وليس لهذا من دلالة سوى أن التحدي الأرمني للعبيديين قد بلغ ذروته ومداه.

عُمِّر هذا التحدي سنة وشهرين وحوالي ثلاثة عشر يومًا، من بداية وزارة الأكمل في السادس من ذي القعدة سنة أربع وعشرين وخمسمائة للهجرة (أكتوبر ١١٣٠م)، إلى مقتله يوم السادس عشر من المحرم سنة ست وعشرين وخمسمائة للهجرة (ديسمبر ١١٣١م)، وقد قُتل بأيدي جماعة من أنصار الاتجاه المؤيد للحافظ(١١٣)، ومن ثم أُخرج الأخير من معتقله، وجددت له البيعة من جديد، ولكن في هذه المرة على أنه الخليفة(١١٤).

عيَّن الحافظ في الوزارة السعيد أبا الفتح يانس الأرمني الذي كان الرأس المدبر وراء التخلص من الأكمل بن الأفضل، ولكن لم يكد يمضي وقت طويل حتى تأزمت العلاقة بين الحافظ من ناحية والوزير يانس الأرمني من ناحية ثانية، وأخذ كل منهما يدبر ضد

---

(١١٢) وهذا مما غيَّره الأكمل من الشعائر الدينية والإدارية للدولة العبيدية، وبموجبه أصبح في مصر قاضيان سنيان: أحدهما شافعي، والآخر مالكي، وقاضيان شيعيان: أحدهما إسماعيلي، والآخر إمامي. ابن ظافر، الدول المنقطعة، ج١، ص٢٤٧-٢٤٨؛ المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج٣، ص١٤٥، ١٤٧.

(١١٣) ابن ظافر، الدول المنقطعة، ج١، ص٢٤٢؛ ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص٣٣٥؛ ابن ميسر، المنتقى، ص١١٧.

(١١٤) ابن ظافر، الدول المنقطعة، ج١، ص٢٤٢؛ ابن ميسر، المنتقى، ص١١٧؛ النويري، نهاية الأرب، ج٢٨، ص٢٩٨.

الآخر، وكان الخليفة أسبق في تدبيره، وعن طريق السم الذي دس له مع ماء الوضوء تم التخلص من الوزير يانس الأرمني(١١٥).

يورد المقريزي إشارة سريعة يستطيع الباحث أن يستخلص منها السبب الأول في تأزم العلاقات بين الخليفة والوزير، هذه الإشارة هي قوله: "واشتد بأس يانس وعظم شأنه"(١١٦)، وهذا يعني أن الوزير حاول أن يستبد بالأمور دون الخليفة، ويسجل التاريخ على يانس عدة تصرفات تؤكد ميله إلى الاستبداد ومعارضة الخليفة، ومن هذه التصرفات قتله عددًا من رجالات الدولة الخاصين عند الخليفة دون استشارته في شيء من هذا(١١٧).

ظهر هذا من يانس خلال وزارته القصيرة التي عمرت ما يزيد قليلاً على تسعة أشهر، ومعنى هذا أنه لو أُتيحت ليانس فرصة زمنية كتلك التي أُتيحت للأفضل أو حتى نصفها لأعاد سيرة الأفضل في الاستبداد بالدولة، وتسييرها بما يخدم أهدافه وأهداف بني جلدته من الأرمن المستوطنين في الديار المصرية.

على أي حال، فإنه بعد التخلص من يانس الأرمني تحررت الدولة العبيدية، ولعدة سنوات من تسلط الأرمن، ولكنها وقعت ضحية لهذا التسلط من جديد ابتداءً من شهر جمادى الآخرة سنة تسع وعشرين وخمسمائة للهجرة (١١٣٥م) حينما أُسندت الوزارة العبيدية إلى بهرام الأرمني(١١٨).

---

(١١٥) ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص٣٣٥؛ ابن أيبك، الدرة المضيئة، ص٥٠٦؛ المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج٣، ص١٤٩.

(١١٦) الخطط، ج٢، ص٢٧.

(١١٧) ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص٣٣٥؛ المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج٣، ص١٤٥.

(١١٨) ابن ظافر، الدول المنقطعة، ج١، ص٢٤٥؛ ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص٣٤٧، ص٣٥٦.

الحلقة الأخيرة:

يعد إسناد الوزارة العبيدية إلى بهرام الأرمني الحلقة الأخيرة في سلسلة نفوذ أو تسلط الأرمن على الدولة، كما يعد في الوقت نفسه من أخطر هذه الحلقات وبالذات على النواحي الدينية والاجتماعية والإدارية فيها، ذلك أن من تولوا الوزارة من الأرمن السابقين كانوا مسلمين، حتى وإن اتهم بعضهم بمخالفة العبيديين في المذهب، أما بهرام فقد اجتمع إلى أصله الأرمني ديانته النصرانية(١١٩)، ومن ثم فإن إسناد الوزارة إليه لم يكن يحمل سلبية واحدة بل سلبيتين، والسلبية الدينية أخطر بكثير من سلبية الانتماء إلى الأصل الأرمني.

يعد إسناد الوزارة العبيدية إلى بهرام الأرمني الحلقة الأخيرة في سلسلة نفوذ أو تسلط الأرمن على الدولة

ونرجع إلى التاريخ فنجد أن الدولة العبيدية قد تعرضت لأزمة خطيرة في سنة ثمان وعشرين وخمسمائة للهجرة (١١٣٣-١١٣٤م)، والسنة التالية نتيجة للانقسام الذي حدث بين الخليفة الحافظ من ناحية وابنه حسن من ناحية ثانية وما ترتب عليه من تأجج نيران الحرب الأهلية(١٢٠)، وفي خضم هذه الحرب لجأ الخليفة إلى الاستعانة بوالي الغربية(١٢١) بهرام الأرمني الذي وجد في هذه الاستعانة فرصته السياسية الكبرى، فقاد أتباعه من العربان(١٢٢) والأرمن، وزحف بهم على القاهرة، وبعد حصار قصير دخل العاصمة المصرية(١٢٣).

---

(١١٩) ابن ميسر، المنتقى، ص١٣١، ١٣٣؛ النويري، نهاية الأرب، ج٢٨، ص٣٠٥-٣٠٦؛ المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج٣، ص١٥٦.

(١٢٠) فضلاً انظر الحاشية رقم (٣٠).

(١٢١) ولاية الغربية: تكونت في العصر العبيدي باسم كورة الغربية، وأطلق عليها ذلك لوقوعها غربي النيل، واسعة الأرجاء كثيرة النواحي، كانت قاعدتها المحلة الكبرى، ثم أصبحت طنطا في وقت متأخر، ومن مدنها كفر الزيات (جريسان)، والنحارية (التحريرية). ياقوت، المعجم، ج٤، ص٤٣؛ سعاد ماهر، محافظات الجمهورية العربية المتحدة في العصر الإسلامي، ص١١٤، ١١٧.

(١٢٢) فضلاً انظر الحاشية رقم (٥٠).

(١٢٣) ابن ميسر، المنتقى، ص١٢١، ١٢٣؛ المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج٣، ص١٥٥-١٥٦.

في اليوم الرابع من دخوله القاهرة، وهو اليوم الرابع عشرة من جمادى الآخرة سنة تسع وعشرين وخمسمائة للهجرة (١١٣٥م) خلع الخليفة الحافظ على بهرام خلع الوزارة ونعت برغم كونه نصرانيًا "بسيف الإسلام تاج الملوك" أو تاج الخلافة(١٢٤)، وقد أسند الحافظ وزارته إلى بهرام الأرمني النصراني على الرغم من النصائح أو التحذيرات التي استهدفت صرف الخليفة عن التمسك بهذا الأرمني النصراني وزيرًا(١٢٥).

وعلى مدى الفترة التي تولى فيها بهرام الوزارة العبيدية فتحت أبواب مصر على مصراعيها للأرمن الوافدين من كل مكان، "وأقبل الأرمن يردون إلى القاهرة ومصر من كل جهة حتى صار منهم عالم عظيم"(١٢٦)، وتتابع وصول الأرمن إلى مصر من بلاد الشام ومن بلاد الأرمن وغيرها خلال سنة ثلاثين وخمسمائة للهجرة (١١٣٥-١١٣٦م)، والسنة التالية، وكان من بين القادمين إخوة بهرام وأقاربه، وقد وضع بهرام أقاربه وأتباعه في المناصب المهمة، وها هو ذا الباساك، أخو بهرام، قد أُسندت إليه ولاية قوص(١٢٧)، التي كانت تعني زمن العبيدين حكم جميع بلاد الصعيد(١٢٨)، ومعنى هذا أن

---

(١٢٤) ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص٣٤٦-٣٤٧؛ ابن ميسر، المنتقى، ص١٢٢؛ المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج٣، ص١٥٦.

(١٢٥) ابن ميسر، المنتقى، ص١٢٣.

(١٢٦) المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج٣، ص١٥٦.

(١٢٧) شمال أسوان على الشاطئ الشرقي لنهر النيل، تبعد عن القاهرة جنوبًا بنحو (٣٥٠) ميلاً، من أهم مدن صعيد مصر وأكبرها ومن أهم مراكز التجارة الداخلية في مصر، مدينة واسعة الأرجاء ذات أسواق وزراعات وافرة، كانت زمن العبيديين كورة يتبعها كثير من المدن والنواحي. ياقوت، المعجم، ج٤، ص٤١٣؛ محمد عبده الحجاجي، قوص في التاريخ الإسلامي، القاهرة، ١٩٨٣م، ص١٣٦، ١٣٨؛ سعاد ماهر، محافظات الجمهورية، ص٨٦-٨٧.

(١٢٨) ابن القلانسي، الذيل، ص٢٦٢؛ ابن ميسر، المنتقى، ص١٢٤؛ المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج٣، ص١٥٦، ١٥٨.

القسم الأكبر من الديار المصرية ممثلاً في العاصمة وفي الصعيد، قد صار تحت الحكم المباشر للأرمن النصارى، ويذكر عن هؤلاء الأرمن أنهم أساءوا معاملة المسلمين، كما أنهم أكثروا من بناء الكنائس(١٢٩)، وكانوا سببًا في قيام حرب على أرض مصر بينهم وبين المسلمين.

أثارت تصرفات بهرام وأخيه الباساك والأرمن بصوره عامة ثائرة المسلمين، فبعثوا إلى رضوان بن ولخشي(١٣٠) والي الغربية، يحثونه على سرعة المجيء إلى العاصمة العبيدية وإنقاذهم من تعسف واستبداد الأرمن، وعلى رأسهم الوزير بهرام(١٣١).

حشد رضوان رجاله وزحف بهم على القاهرة، حيث تصدى له بهرام، ولكن الهزيمة سرعان ما لحقت بالأخير، وذلك في الحادي عشر من جمادى الأولى سنة إحدى وثلاثين وخمسمائة للهجرة (١١٣٧م)، وكان العامل الحاسم في هذه النتيجة السريعة انحياز من كان في جند بهرام من المسلمين إلى جانب إخوانهم في الدين الذين يعملون تحت قيادة رضوان(١٣٢).

وصل خبر هزيمة بهرام إلى قوص، فتشجع المسلمون بها وهاجموا الباساك، أخا بهرام وقتلوه، وبعد يومين من مقتل الباساك قدم بهرام

---

(١٢٩) ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص٣٤٦-٣٤٧؛ ابن ميسر، المنتقى، ص١٢٤.

(١٣٠) الملك الأفضل رضوان بن ولخشِي أول من تلقب من الوزراء بلقب الملك، استوزره الحافظ يوم الأربعاء الحادي عشر من جمادي الأولى سنة ٥٣١هـ، فأقام مدة سنتين وأشهر، فعمل الحافظ على قتله، وبعد جولات من النزاع أمَّنه الحافظ، ثم عهد إلى جمع من السودان بالهجوم عليه وقتله، وتم لهم ذلك أواخر ذي القعدة سنة ٥٤٢هـ. كان سنيًا حسن الاعتقاد شجاعًا شديد البأس رابط الجأش. ابن ظافر، الدول المنقطعة، ج١، ص٢٤٦؛ ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص٣٥٦-٣٥٧؛ ابن ميسر، المنتقى، ص١٣١، ١٣٧.

(١٣١) ابن ظافر، الدول المنقطعة، ص٢٤٥-٢٤٦؛ ابن ميسر، المنتقى، ص١٢٤؛ النويري، نهاية الأرب، ج٢٨، ص٣٠٤.

(١٣٢) المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج٣، ص١٦٠.

في نحو ألفين من الأرمن، فقتل جماعة من قوص ونهبها انتقامًا لمقتل أخيه، وفرَّ هاربًا منها إلى أسوان، حيث قبض عليه بعد أيام، وأُحضر إلى القاهرة بين يدي الخليفة الفاطمي(١٣٣).

وهكذا سقطت وزارة بهرام بعد سنة واحدة وعشرة أيام، وصل في أثنائها تحكم الأرمن النصارى وقهرهم للمسلمين إلى مستوى لم يسبق أن عاشوه منذ الفتح الإسلامي لمصر.

سقط بهرام الأرمني كوزير ولكن الخليفة الحافظ احتفظ به مستشارًا خاصًا له، وأفرد له مكانًا بالقصر، وكان الحافظ يشاوره في أموره، وبقي بهرام على وضعه هذا منذ أحضر من أسوان إلى القاهرة في رمضان سنة ثلاث وثلاثين وخمسمائة للهجرة (أبريل ١١٣٩م) وحتى وفاته في ربيع الآخر سنة خمس وثلاثين وخمسمائة للهجرة (ديسمبر ١١٤٠م)، وقد سجل التاريخ للخليفة الحافظ أنه حزن على بهرام حزنًا شديدًا، وأمر بغلق الدواوين، وأن لا تفتح ثلاثة أيام، وتصور المصادر التاريخية تشييع جنازة بهرام في حشد هائل من المشيعين يتقدمهم الخليفة الحافظ الذي خرج راكبًا بغلته خلف التابوت، "والأقساء (القساوسة) يعلنون بقراءة الإنجيل، والحافظ على حالته إلى دير الخندق بظاهر القاهرة، فنزل الحافظ عن بغلته، وجلس على شفير القبر، وبكى بكاءً شديدًا"(١٣٤).

وحتى مع هذا التكريم الذي حظي به بهرام في تشييع جنازته، فإن موته كان الصفحة الأخيرة في الفترة الأرمنية، وهي الفترة التي بدأت مع بداية بدر الجمالي في منتصف سنة ست وستين وأربعمائة للهجرة (فبراير ١٠٧٤م).

---

(١٣٣) ابن ظافر، الدول المنقطعة، ج١، ص٢٤٥؛ ابن أيبك، الدرة المضيئة، ص٥١٨.

(١٣٤) ابن ميسر، المنتقى، ص١٣٣؛ المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج٣، ص١٧٥.

خصائص وسمات:

وأخيرًا يمكن للباحث أن يستخلص السمات التالية كملامح خاصة بحقبة نفوذ العناصر الأرمنية في تاريخ الدولة العبيدية.

أولى هذه السمات هي: أن كل الوزراء الأرمن سواء كانوا أرمنًا بالجنس أم أرمنًا بالولاء، كل هؤلاء الوزراء قد ساروا في علاقاتهم مع الخلفاء العبيديين على أساس سلب السلطة منهم، والتحكم في دولتهم إلى أبعد حدود التحكم، حتى وإن بدت الأساليب والوسائل متباينة في بعض الأحيان، وقد تمثلت ذروة هذه السمة في السياسة التي حكمت علاقات كل من الأفضل بن بدر الجمالي وابنه الأكمل بالخلفاء العبيديين.

ثانية هذه السمات هي: إثارة الفرقة والصراع بين أبناء الأسرة العبيدية، ومثل هذه السياسة تساعد الوزراء الأرمن على تحقيق أهدافهم التي تتلخص في السيطرة على مقاليد الأمور في الدولة، ويكفي أن نعرف أن معظم الانقسامات وأخطرها عاشتها الأسرة العبيدية والدعوة الإسماعيلية في عهود الوزراء الأرمن.

أما ثالثة هذه السمات فهي: محاولة التقرب إلى العامة؛ وذلك كي يجدوا منهم عونًا في المواقف التي تحتاج إلى عونهم ومؤازرتهم، وها هو ذا بدر الجمالي يعفي المزارعين من دفع الخراج مدة ثلاثة أعوام، وكانت النتيجة أن تحسنت أحوال الفلاحين، وصلحت معايش الناس، وكثرت النعم في أيديهم، ونشطت التجارة، وزاد تردد التجار على مصر وأسواقها، ويصف المقريزي ذلك بقوله: "أطلق الخراج للمزارعين، ولم يأخذ منهم شيئًا ثلاث سنين، حتى صلحت أحوال الفلاحين، واستغنى أهل مصر في أيامه، ودرَّت عليهم أخلاف النعم بعد توالي الشدائد الكبيرة، ومقاساة الألم، وكثر ترداد التجار في أيامه إلى مصر بعد نزوحهم عنها"(١٣٥).

---

(١٣٥) اتعاظ الحنفا، ج٢، ص٣٣٠.

ويقول ابن ميسر عن الأفضل وسياسته في هذا الشأن: "وكان من العدل وحسن السيرة في الرعية والتجار على صفة جميلة، تجاوز ما سمع به قديمًا وشوهد أخيرًا، ولم يعرف أحد صودر في زمانه ولا قسط عليه"(١٣٦).

هذا ما نجده في المصادر التاريخية عن بدر الجمالي وابنه الأفضل، وجلي أنها تميل إلى إطراء جهود الرجلين لما قدماه للمصريين، ولما جرى على أيديهما من خير عميم، وواضح أيضًا أن هذه المصادر تريد أن تقول، أو أنها قالت صراحة: إن هذه السياسة تجاه العامة لم تتوافر لدى الخلفاء العبيديين، ولم تنل منهم الاهتمام والحرص على مصالح العامة.

وكما أثنت المصادر على بدر وابنه الأفضل، فإنها أثنت أيضًا على الحفيد أبي علي الأكمل على الرغم من أن الفترة التي أمضاها في وزارته كانت قصيرة، لكنها كانت متخمة بالصراع بينه وبين الحافظ، فعنه يقول ابن ميسر: "ولما ولي جرى على منهاج أبيه في حب العدل، وأعاد على الناس ما أخذ من أموالهم وأملاكهم"(١٣٧) وما أشار إليه ابن ميسر نجد له نظيرًا لدى ابن ظافر(١٣٨) والمقريزي(١٣٩).

رابعة هذه السمات هي: العمل على تنمية الموارد المالية للدولة العبيدية، وقد نجح بدر في ذلك، كما نجح ابنه الأفضل أيضًا، بل يمكن أن يقال عنه: إنه فاق أباه في هذه الناحية.

ويتفرع عن هذه السمة سمة أخرى هي: أن قيام الوزراء الأرمن بتنمية موارد الدولة لم يكن عملاً خالصًا من أجل الدولة، بل من المرجح أنهم استهدفوا من وراء ذلك تحقيق مصالحهم الشخصية في

---

(١٣٦) المنتقى، ص٨٣.

(١٣٧) المنتقى، ص١١٧.

(١٣٨) الدول المنقطعة، ج١، ص٢٤٠-٢٤١.

(١٣٩) اتعاظ الحنفا، ج٣، ص١٤٠.

الإثراء وتكوين الثروات الطائلة، ونظرة سريعة على الأنواع والأرقام التي تمت مصادرتها عقب اغتيال الأفضل تؤكد لنا هذا الترجيح(١٤٠).

سادسة هذه السمات هي: أن سياسة التحكم والتسلط التي مارسها الوزراء الأرمن قد أحدثت ردود فعل لدى الخلفاء العبيديين، والتي تمثلت في ضربات وجهوها ضد الوزراء الأرمن، وكانت تلك الضربات الجانب المنظور لمؤامرات مدروسة بإحكام هدفها التخلص من هذا الوزير أو ذاك.

السمة السابعة هي: ما ترتب على إدراك الخلفاء للخطر الكبير الذي كان يمثله الوزراء الأرمن على كيان الدولة العبيدية، فقد ترتب على هذا الإدراك إلغاء منصب الوزارة أكثر من مرة، حدث هذا عقب التخلص من الأفضل بن بدر الجمالي، كما حدث أيضًا إبان خلافة الحافظ لدين الله.

السمة الثامنة هي: أن الأوضاع الداخلية للدولة شغلتها كلية عن اهتماماتها الخارجية خصوصًا في المحافظة على مصالحها ومناطق نفوذها في أقاليم مختلفة في بلاد المغرب وبلاد الشام والحجاز واليمن، وما يقال عن تحالفات أو اتفاقيات عقدها الوزراء الأرمن مع طلائع القوى الصليبية الغازية لبلاد الشام كانت: نتيجتها اقتطاع مناطق إسلامية مهمة، وأشدها حساسية وأهمية تلك التي تقع ضمن مناطق نفوذ الدولة العبيدية.

السمة التاسعة والأخيرة: تمثلت في حقيقة أن سياسة التحكم التي مارسها الوزراء الأرمن كانت من القوة بحيث لم تتحرر منها الدولة العبيدية حتى بعد التخلص من الأرمن، وقد استمرت هذه

---

(١٤٠) ابن ظافر، الدول المنقطعة، ج١، ص٢٣٩؛ ابن ميسر، المنتقى، ص٧٩-٨٠؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج٢، ص٤٥١.

السياسة ملازمة للدولة حتى أيامها الأخيرة، بل إنها كانت أحد العوامل الأساسية التي أدت إلى سقوطها في أوائل سنة سبع وستين وخمسمائة للهجرة (١١٧١م).

هذه هي الأبعاد الأساسية لتاريخ الدولة العبيدية خلال حقبة النفوذ الأرمني، وهي فترة ليست بالقصيرة، إنها تقترب من خمسة وستين عامًا، أي حوالي ربع عمر الدولة العبيدية، ولا تقف أهمية الفترة الأرمنية عند عمرها الزمني بل إنها تتجاوز ذلك إلى طبيعة وأهمية الكثير من الأحداث والتطورات التي وقعت فيها.